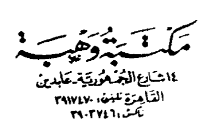
حوار الأديان

ودور الدعوة الإسلامية فى مواجهة التحديات

الدكتور محمد شامة



الطبعة الأولى

١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

" ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَـــةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُـــوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ "

[النحل : ١٢٥]

صدق الله العظيم



مقدمة

لم يقتصر الدعاة — عبر تاريخ الفكر الإسلامى — فى دعوتهم إلى الإسلام على **المنهج الوعظى** ، بقسميه : الوجدانى والتعليمى ، بل كثيراً ما استخدموا : **المنهج العقلى** (الحكمة) فى مناقشة المخالفين وأصحاب الأديان الأخرى ، **والمنهج الجدلى** فى محاورة المناوئين للإسلام ، والمشككين فى تعاليمه ، فامتلأت كتب التراث بمناقشات حادة ، ومحاورات مستفيضة . وهذا هو أسلوب الداعية الذى يفقه تعاليم الإسلام ، ويدرك قيمه التى جاءت لصالح الفرد والجماعة .

فإذا اقتصر الدعاة على الوعظ ، ضاربين الصفح عن الإدلاء بآرائهم فى الاتجاهات الفكرية المعاصرة ، ومتجاهلين السهام التى توجه للإسلام من أرباب الحداثة ، ودعاة ما بعد الحداثة ، انكمش أثر الدعوة داخل المساجد ، وفى فناء أروقة المريدين ، مما يجعل الساحة خالية أمام التيارات الفكرية البعيدة عن روح الدين ، فضلاً عن الأفكار المناوئة له ، والداعية إلى إبعاده عن الحياة العامة .

ولهذا يجب على الدعاة أن يتسلحوا بأسلحة فكرية ، قادرة على مواجهة هذه التيارات ، وتفنيد مضمونها ، فما كان صالحاً للتعايش مع التعاليم الإسلامية، قبلوه ، وشرحوا الجوانب التى يتفق فيها مع القيم الإسلامية ، وما كان غير ذلك ناقشوه بأسلوب حسن ، اتباعاً لقوله تعالى : " .. **وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ... " [سورة النحل : ١٢٥] ، وبينوا عناصر اختلافه مع النظام الذى رسمه الإسلام لحياة المجتمعات الإنسانية ، وبذلك يكونون قد أدوا واجبهم على الوجه الأكمل، وإلا فهم مقصرون فى أداء الرسالة . ويجب على المؤسسات الدينية

المشرفة على تأهليهم أن تتدارك هذا النقص ، ليظهر الإسلام بأداء دعاته فى صورة حسنة ، تقبلها النفس ، وترتضيها المجتمعات المعاصرة.

ومن أهم ما ظهر على الساحة الفكرية فى النصف الثانى من القرن العشرين : **حوار الأديان** ، دعت إليه الكنيسة فى ستينات القرن الماضى ، فتلقفته دوائر الإعلام ومنتديات الفكر على شكل مقالات وعقد ندوات ومؤتمرات ، أسفرت عن تكوين لجان للحوار بين الإسلام والمسيحية ، بطوائفها المختلفة ، وفى مقدمتها الطائفة الكاثوليكية . دارت فى هذه اللقاءات مناقشات ومحاورات حول العلاقة بين الدينين ، لكن للأسف الشديد لم تسفر هذه اللقاءات عن خطوط واضحة معينة ، يلتزم بها الطرفان للتعايش السلمى ، الأمر الذى دفع المتلقين لهذا التيار إلى هذه التساؤلات :

هل يريد المتحاورون من الحوار الوصول إلى التعايش السلمى بين البشر ، بصرف النظر عن عقائدهم ، وانتماءاتهم الدينية ، أم هو وسيلة ابتدعها الغرب لتنويم الناشطين فى مجال الدعوة الإسلامية ، حتى تخلو الساحة للمبشرين تحت ظلال سلاح القوات التى تمركزت فى عدد من أقطار العالم الإسلامى ؟

هل يهدفون من الحوار إلى رفع المسائل العقدية من المناهج الدراسية ، حتى يقتنع الدارسون من شباب العالم الإسلامى بأنه ليس هناك فرق بين الإسلام والمسيحية ، وعليه فلا حرج أن يعتنق المرء أحد الدينين ، ما دام رؤساء المؤسسات الدينية يركزون فى لقاءاتهم على أن الإسلام والمسيحية عقيدتان متساويتان ، لا فرق بينهما ، الأمر الذى يؤدى إلى شل فاعلية الدعاة حين يبينون للناس : أن الدين عند الله هو الإسلام وليس غيره ؟

هل يراد من الحوار خداع المسلمين بشعارات الأخوة ، ونـداءات التعايش ، حتى يهمل المسلمون دعوتهم ، فتخلو الساحة للمبشرين ودعاة وحدة الأديان ، فتتلاشى قيم الإسلام من وجدان الأمة ؟

وهل يبدو الحوار وسيلة للخداع ، أم أسلوب للتعايش السلمى ؟

وهو عنوان البحث الأول من الأبحاث الثلاثة التى ضمها هذا الكتاب .

والبحث الثانى ، يتناول الاتجاهات الفكرية التى تواجه الدعاة ، وكيفيـة مواجهتها ، مع بيان فلسفة الإلزام فى الإسلام فى البحث الثالث ، ليعرف القارئ أن تعاليم الإسلام هى لمصلحة الإنسان ، والرقى بحياته إلى درجـة تفـوق مـا توصلت إليه الحضارة الحديثة ، فالإسلام صالح لكل زمان ومكان ، يلبى حاجـة البشر ، مهما اختلفت أساليب حياتهم ، وتنوعت درجات حضارتهم .

ولذلك أقدمه للمسلم ليستعين به على إدراك هويته الإسلامية ، ومعرفة أن الإسلام دين حضارة وتقدم ، وسوف يرتقى به المسلمون إلى أعلى درجة مـن الرقى والتقدم ، إذا فهموه حق الفهم ، وأدركوا حقيقة قيمه ، وتمسـكوا بهـا ضاربين الصفح عن ادعاءات المخادعين وصيحات المضللين .

أما البحث الثالث فهو بعنوان : " فلسفة الإلزام فى الإسلام " ، بينت فيـه أن العبادات ليست مقصودة لذاتها ، وإنما فرضت لمصـلحة المسـلم ، ولتنميـة المجتمع ، والحفاظ على تماسكه ، وتوجيه أفراده إلى بذل الجهد فى مجال الإبـداع والابتكار ، كى تنهض أمتهم ، وتنتعش حياتهم .

أدعو الله أن يعين الدعاة على تأدية رسالتهم على الوجه الأكمل.

إنه سميع مجيب .

محمد عبد الغنى شـامـة

حوار الأديان

خدعة أم وسيلة للتعايش السلمى

حـوار الأديـان

أصبح الخطاب الثقافى فى عالمنا العربى بوجه عام مُوَجَّها مـن الخـارج ؛ فالغرب يصدر لنا بين الحين والآخر مصطلحات ثقافيـة ، ومنطلقـات فكريـة لننشغل بها ، إن تفسيراً وتوجيهاً وتأويلا ، وإن دفاعاً عـن الـنفس ، وتوسـلاً وتودداً بأن مفهوم هذا المصطلح ، أو ذاك ، بعيد عن هويتنا وتعاليمنا ، محـاولين — بأسلوب التوسل الذى قد يصل أحياناً إلى المذلة والمسكنة — إقناعهم بأننا لسنا متشددين ، ولا عدوانيين ، ولا متطرفين . وأحياناً يذهب البعض من مفكرينا إلى أقصى حد ممكن ليقنعهم بأننا متحضرون ، حتى ولو أدى الأمر إلى التنصل مـن مسلمات دينية ، والتبرؤ من أساسيات فى منظومتنا الثقافية ، والابتعاد عن عادات وتقاليد تعتبر ركائز أساسية فى تكويننا الثقافى والدينى .

الأصوليـة

صدر الغرب لنا بالأمس القريب مصطلح : " الأصولية " — وهو ترجمـة لكلمة : Fundamentalism — مشوباً بالتطرف ، وعدم الاعتراف بالآخر ، ورفض كل ما هو جديد ، وإعلان الحرب على الحضارة الحديثـة ، مسـتهدفاً تدميرها ، ومحوها من الوجود ، وأوهمونا بأن مصدر ذلك كله هـم المسـلمون الذين يجاهدون فى سبيل الله بالأسلحة والمتفجرات لإعادة بناء الدولة الإسـلامية بالصورة التى كانت عليها فى صدر الإسلام . شنت الصحافة الغربية حرباً إعلانية على المسلمين متهمـة إياهم بأنهم أصوليون يحاربون الحضارة الحديثة ، ويعملون على تدميرها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، فتجاوب مثقفونا مع رجـع صـدى

هذه الحملة ، محاولين التبرؤ من الأصولية ، وممن يدّعون بأنهم أصوليون ، وداروا بذلك فى فلك التيار الغربى ؛ فكلما ظهر على ساحة الأحداث مسلم يدافع عــن دينه ، اتهموه بالأصولية حتى ظن كثير من الناس أن صفة الأصولية وصمة عـــار ينبغى على المرء التبرؤ منها ، حتى لا يوضع اسمه فى قائمة المطاردين من " العدالة الدولية " ، مع أن الحقيقة التى كان يجب على مثقفينا أن ينتبهوا لها : هى أن كل مسلم يحافظ على دينه ، ويلتزم بتعاليمه هو **أصـــــولى** ، لأنه يتمسك بما جاء فى المرجعيات الأصلية للإسلام ، وهى : القرآن الكريم ، والسنة النبوية . فالمفهوم الغربى للأصولية يختلف عن المفهوم الإسلامى ، لأن الأصولية فى الغرب هـــى : حركة ظهرت فى أمريكا فى عام ١٩١٨م رداً على من كانوا ينقدون الإنجيل من الليبراليين ورجال الدين المتحررين . وأتباع هذه الحركة من عامة المســيحيين ، فهى رد فعل للهجوم الذى كان موجها إلى الإنجيل بقصد التشكيك فى صــحته لزعزعة الإيمان به .

فالأصولية فى الإسلام ليست حركة كما كان الحال فى المجتمع المســيحى الأمريكى فى عام ١٩١٨م ، وإنما هى وصف لكل مســلم يتمســـك بنصـــوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، سواء كان ملتزما بظاهر النص ، أم كـــان مؤولا له كى يتلاءم مع ظروف العصر ومتطلباته .

وهناك الكثير من المصطلحات التى يرددها الغرب عن الإســـلام ، ســـواء كان ذلك عن جهل بتعاليم الإسلام ، أو سوء نية وقصد ، ولـــذا يجــب علـــى المسلمين أن يصححوا للغرب هذه المفاهيم بكل الوسائل ، ومـــن أهـــم هـــذه الوسائل :

الحوار

فالحوار فى حد ذاته مطلب حيوى ، وضرورة قصوى ، لتصحيح هذه المفاهيم التى يتهم الغرب الإسلام — والمسلمين — بها ، من قبيل : أنه الدين الذى يدعو إلى القتل والاغتيال تحت شعار "**الجهاد**" ، وأنه الدين الذى يرفض معتنقوه التعايش مع "**الآخر**" ، فالمسلم فى ساحة التعامل مع الآخر إما قاتل أو مقتول ، وأن المسلمين — وخاصة العرب — شعوب متخلفة ؛ لايدركون للتقدم معنى ، ولا يعرفون أسس الحضارة فى السلوك والقيم ؛ لأنهم مرتبطون بالإسلام ، ذلك الدين القائم على الهمجية فى التفكير والسلوك ، ومعاداة التقدم العلمى فى أى مجال ، فهو دين الجمود والارتباط بالماضى ، والاستهانة بالحاضر ، وتجاهل المستقبل .

كل هذا يحتاج من المسلمين إلى بذل الجهد لتصحيح هذه المفاهيم ، ولعرض التعاليم الإسلامية الصحيحة فى ثوبها الأبيض الناصع ، بعيداً عن تشنجات المتشددين ، وشطحات المتطرفين ، وسلوكيات الجاهلين . ولكن قبل أن نخوض فيما يجب أن يكون عليه الحوار مع "**الآخر**" ، ونرسم موضوعاته ، ونوضح أهدافه ، يجب أن نركز أولا على الحوار مع "**النفس**" ، ونقصد به الحوار مع رموز التيارات والمذاهب الإسلامية داخل المجتمعات الإسلامية ، حتى يمكننا أن نرتب البيت من الداخل قبل الحديث مع "**الآخر**" ، ذلك أننا نواجه دائماً فى لقاءات عديدة بسؤال يكاد يكون بألفاظ واحدة ، ألا وهو : عن أى إسلام تتحدثون ؟ عن الإسلام الشيعى أم السنى ؟ عن التيار السلفى ، أم عن تيار المجددين ؟ عن مفهوم طالبان أم عن تصور تنظيم القاعدة ، وجبهة الإنقاذ الجزائرى وجماعة التكفير والهجرة وأمثالها ؟ عن المتمسكين بظاهر النصوص

المنكفئين على الماضى ، أم عن " **العقلانيين** " المتهمين من السلفيين بالزندقة ؛ لأنهم يحاولون التوفيق بين النصوص المقدسة ومعطيات العصر ، ومتطلبات الحضارة الحديثة ؟

ومما لاشك فيه أن تصحيح هذه المفاهيم الذى علقت بذهن " **الآخر** " نتيجة التمزق والتفرق فى ساحة الفكر الإسلامى ، يأخذ وقتاً طويلا ، وجهداً خارقاً ، الأمر الذى يحتم علينا أن نتحاور مع بعضنا أولا ، كى نرسم خريطة الحوار مع " **الآخر** " ، حتى ولو لم نصل من هذا إلا إلى تحديد أهداف الحوار مع " **الآخر** " . فتحسين الصورة الإسلامية بقدر الإمكان على الساحة الدولية أمر مهم ، خاصة وأننا نملك الأسس التى يمكن أن نتفق عليها ، ألا وهى : **القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة** ، إذ يمكننا أن نختار الآيات التى ترسم لنا الأسلوب والمنهج الذى نتفق عليه ، مسترشدين بقوله تعالى : "... **وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ** ....." [الأنفال : ٤٦].

منهج الحوار مع النفس

الحوار بين السنة والشيعة
ضرورة دينية وحتمية قومية

تحتم الأحداث الدولية على المسلمين أن يتحدوا ، ويقفوا صفاً واحداً ، السنى بجانب الشيعى ، ناسين خلافاتهم ، متجاوزين تباين آرائهم فى بعض المسائل التى لا تمس الاعتراف بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً ورسولا ، وبالقرآن الكريم — وحى الله — دستوراً ، فالاختلاف فى التفسير والتأويل وقبول بعض الأحاديث ورفض البعض الآخر يمكن التجاوز عنه ، وهو لا يفسد للود قضية فى هذه الظروف ، خاصة وأن الصراع الدولى يوجب عليهم الوقوف صفاً واحداً ، وإلا أُكِلوا واحداً بعد الآخر ، ويومئذ ينطبق عليهم المثل الشعبى القائل : " **أُكِلْتُ يوم أن أُكِلَ الثور الأبيض** " .

ينبغى أن ندرس التاريخ دراسة جيدة ، فنتعلم وندرك أن من الأسباب الرئيسية لضياع الأندلس ، هو اختلاف المسلمين وتناحرهم ، وتحالف بعضهم مع العدو ضد إخوانهم المسلمين ، مما فتت قواهم ، فأصبحوا لقمة سائغة ، التهمها العدو ، الواحد تلو الآخر ، حتى استؤصلت شأفتهم من الأندلس . لانريد أن تتكرر هذه المأساة ، ولا يحب أحد من السلمين أن يرى هذا المشهد مرة أخرى ، ولذلك يجب أن يتحاور أهل السنة مع الشيعة ، ليصلو إلى تكوين جبهة صلبة ، تتمكن من مقاومة هذا الزحف الجارف على ديار الإسلام ، الذى لن يبقى — لا قدر الله — على سنى ، ولا على شيعى ، فلنبدأ الحوار السنى الشيعى اليوم قبل غدٍ ، على أن تشتمل أجندته على النقاط التالية :

١- إحياء لجنة التقارب بين المذاهب التي دعـــا إليهـــا في منتصـــف القـــرن العشرين : الشيخ محمود شلتوت ، وآيـــة الله القمـــي ، بحيـــث يكـــون نشاطها :

- إبرازَ مسائل الاتفاق في الفقه والتفسير والحديث ، في صـــورة كتـــب وأبحاث تُنشَر بين أنصار الطائفتين لخلق وعي عام بضرورة الوقـــوف جبهة واحدة أمام الأخطار الخارجية.
- الدعوة إلى نسيان الماضي بما فيه من أحقاد وكراهية بين التيارين .
- التركيز على وجوب التعاون والوحدة بين الفريقين ، كي يســـتطيعوا مواجهة الهجمات الشرسة التي يتعرضون لها من مختلف القوى العالمية.

٢- عقد اتفاقات ثقافية بين الجامعات الإسلامية في المجتمعات الشيعية ونظيراتها في المجتمعات السنية ، لتبادل المنح الطلابية ، حتى يتخرج جيل يعرف كلٌّ ماعند الآخر من تفسيرات وتأويلات للنصوص الدينية ، وكذلك لتبـــادل زيارات الأساتذة والباحثين لخلق جو علمي أكاديمي بين الفريقين ، بعيداً عن المزايدات المذهبية ، والانفعالات الوجدانية .

٣- عقد ندوات ومؤتمرات للحوار بين الجانبين ، يركز فيها علـــى التواصـــل والتعاون ، ويعلن فيها أن كلاً يعترف بالآخر ، ويحترم رأيه ، حتى يكون دافعاً لأصحاب القرار على اتخاذ ما يلـــزم للتقـــارب والتعـــاون علـــى المستويات : الاقتصادية ، والسياسية ، والاجتماعية ، كي يظهر المسلمون أمام العالم بأنهم جبهة واحدة ، وأنهم يتعاملون مـــع بعضـــهم بأســـلوب حضاري ، دعا إليه الإسلام ، وإن اختلفت وجهات نظـــرهم في تفســـير وتأويل النصوص المقدسة . ومما لاشك فيه أنه ، إن حدث هذا، ستكون

له آثار بعيدة المدى فى مجال الحوار الدينى مع غير المسلمين على المستوى الإقليمى والدولى .

٤- تدريس المذاهب الإسلامية — الفقهية ، والكلامية ، والفلسفية وغيرها — بشعبتيها : السنى والشيعى — فى كل الجامعات الإسلامية .

ولن يتحقق هذا إلا إذا قام زعماء المؤسسات الدينية ، وعلى رأسهم — بل وفى مقدمتهم - شيخ الأزهر بمبادرة تجمع زعماء الطائفتين — الشيعة والسنة — فى العراق على مائدة المفاوضات ، بحيث ترتكز على الأسس التالية :

* نسيان الماضى وتجاوز ماحدث من مواجهات عبر التاريخ الإسلامى .
* جمع الطائفتين حول هذه المبادئ :

أ - الإيمان بالله الواحد .

ب - التصديق برسالة محمد ﷺ .

جـ- الإيمان بنصوص القرآن الكريم ، بل بكل حرف من حروفه .

د - قبول السنة العملية ، والأحاديث المتواترة .

هذه هى الأصول التى تجمع الطوائف الإسلامية كلها ، وما عدا هذا من تفسير لنصوص القرآن الكريم وفهمه ، واستنتاج للأحكام الشرعية ، وتنوع فى قبول الحديث ورفضه على أساس الشك فى صحة نسبته إلى النبى ﷺ فهو خلاف فى الفروع ، لايفسد للود قضية .

فإذا لم يقم زعماء المؤسسات الدينية بهذا الواجب ، فهم مفرطون فى الالتزام بتعاليم القرآن الكريم التى نص عليها قوله تعالى :

" وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن

فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ....." [الحجرات : ٩ – ١٠] .

وليتذكر المسلمون ما حدث لإخوانهم فى الأندلس ، حيث كان الأخوان يتقاتلان ، وكان يستعين أحدهما بالعدو — بل كان العدو هو الذى يشجعه على ذلك — على أخيه ، حتى أكله العدو هو بعد القضاء على أخيه ، مما أضاع سلطان المسلمين كلهم فى الأندلس ، واندثر ملكهم . فما أشبه الليلة بالبارحة ، وصدق الله تعالى إذ يقول : ".... وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ...." [الأنفال : ٤٦].

الحوار بين التيارات والجماعات الإسلامية

ويتضمن :

لقاءات بين رموز هذه التيارات والجماعات ، تحت إشراف الأزهر — بصفته الجامعة التى تعبر عن جميع المذاهب الإسلامية ، لأنها تدرسها دون تفرقة بينها — للنظر فيما يجب عمله فى نشر الدعوة ، بحيث يركز على :

- نبذ الخلافات ، والعنف ، والتطرف .
- رسم منهج عام يلتزم الجميع به لخدمة الإسلام فى الداخل والخارج
- الاتفاق على الخطوط العريضة التالية :

أ- احترام الآراء المخالفة .

ب- عدم تكفير الآخر ، إلا إذا أنكر نصاً من نصوص القرآن الكريم ، أو ما علم من الدين بالضرورة . ولا يحكم بهذا التكفير إلا الجهات

الدينية الرسمية ، بعد البحث والتدقيق ، ويكون الرأى فى ذلك بإجماع الآراء ، عملاً بقول رسول الله ﷺ : " **إدرؤوا الحدود بالشبهات** "[1] ، فمعارضة رأى واحد من العلماء يعتبر شبهة ، **مع العلم بأن جواز إقامة حد الردة مختلف فيه بين العلماء** .

جـ- توحيد الآراء فى المسائل العامة ، والقضايا الدولية ، ويكون اتفاق الأغلبية على الفتاوى مُلْزِماً للجميع ، يلتزمون به فى فتاواهم للعامة ، وتصريحاتهم لوسائل الإعلام . أما فى قاعات البحث ومدرجات التدريس فيجوز عرض جميع الآراء للطلبة ، وإن خالفت ماارتأته الأغلبية للإفتاء به ، لأن التعليم والتعلم ينبغى أن يتناول كل الآراء على الساحة الفكرية .

د- احترام الرموز والمؤسسات الإسلامية رغم اختلاف الرأى معهم .

الحوار مع العلمانيين

تدور معارك فى كثير من الأقطار الإسلامية بين العلمانيين وبين رموز الفكر الإسلامى حول الأخذ بمبدأ الديمقراطية الغربية ، إذ يرى العلمانيون أن هذا النظام هو النموذج المثالى لحكم الشعوب فى العصر الحديث ، ذلك أنه يتيح لكل فرد فرصة اختيار نوابه عن طريق تعدد الاتجاهات ، وتنوع البرامج الحزبية ،

---

[1] نصب الراية: الحافظ الزيلعى / تخريج أحاديث الهداية ٣/٢٢٣ — تلخيص الحبير ١/٥٦ رقم ١٧٥٥ ، ونسبه إلى الترمذى ، والحاكم ، والبيهقى من طريق الزهرى

فهو مخير بين عدة خيارات ، يختار منها ما يلائم حياته ، وما يحقق مصلحته ، وما يتفق مع نظرته للحياة ، وموقفه من الوجود كله ، فـإذا مافـاز اتجـاه بـرأى الأغلبية ، فعلى الجميع أن يسلموا بأحقيته فى تسيير دفة الحكم ، مع إعطاء الاتجاه المعارض حق مناقشة القوانين واللوائح التى يتقدم الحـاكمون بهـا إلى المجلـس المنتخب لإقرارها كأساس لتطبيق النظام فى المجتمع ، وبهذا لا ينفرد شخص بتقرير مصير أمة ، ولا يكون لمجموعة ، أو هيئة ، أو حزب حق الاستيلاء على السلطة ، بدون تفويض من الشعب ، كما لا يجوز للسلطة التنفيذية اتخاذ أى إجراء يتعلق بمصالح الناس ، إلا إذا أجازه من اختارهم الشعب ليمثلوه فى توجيه أمور الدولة .
فالتوازن بين السلطة التشريعة والسلطة التنفيذية يحفظ نظام الدولة من التـداعى والانهيار ، والاعتراف بحق نواب الشعب فى مساءلة رجال الإدارة والحكم فيمـا يمارسونه ، بحكم وضعهم الوظيفى ، يحمى المواطنين من قسوة الحكام وظلمهم ، ويحافظ على مصالحهم ، ويؤمن حياتهم ، ويرسى قواعد الاستقرار فى الأمة .

بينما يرى بعض رجال الدين أن هذا من النظم التى أقرتها العلمانية ، ومـا دامت العلمانية لا تعترف بوجود الدين — كما هو الحال فى العلمانية المتطرفـة — أو لا ترى بأساً من وجوده — كما هو الحال فى العلمانية المعتدلة – غاية الأمر أنه ينحصر فى ظلها فى مجال العبادات ، فليس له سلطان على التشريعات واللوائح التى تضبط مسيرة الحياة ، وإنما مركز التشريع ومصدره ، هو البرلمان المنتخـب من الشعب ولا مصدر غيره ، فلا يجوز لشعب مسلم أن يقر هذا النظام كنموذج له فى الحكم ، لأن المشرع هو الله ، وليس البرلمان . ثم يتطرق المتطرفـون مـن رجال الدين إلى مظاهر هذا النظام المتعددة فيحرمونها كلها ، إذ يرون أن نظـام الأحزاب ليس إسلامياً لأنه يفرق الأمة شيعاً وأحزاباً ، ولذلك فهو غير جـائز ، كما أن تسمية البرلمان بالهيئة التشريعية حرام ، لأن المشرع هو الله .

ربط العلمانيون — على أساس علمي تاريخي — هذا الموقف بما كان عليه الحال فى أوربا إبان العصور الوسطى ؛ إذ تصوروا وضع السلطة البابوية آنذاك ، يوم أن كان البابا والمطارنة والقسس يحلون مايشاءون ، ويحرمون مايشاءون ، ويدخلون الجنة من يريدون ، ويقذفون فى النار من يكرهون ، وتراءت فى أذهانهم صور صكوك الغفران والحرمان ، حيث قاسى منها الحكام والأمراء الكثير من المتاعب والآلام ، بل إن الشعوب نفسها اكتوت بنارها ، وذاقت جحيم أوارها وسعيرها ، فتصوروا — أى العلمانيون — أن تطبيق الشريعة الإسلامية فى مجال الحكم والإدارة سيخلق مثل هذا الوضع فى المجتمع الإسلامى ، حيث يتحكم رجال الدين فى كل شيء دون أن يكون لأحد حق الاعتراض أو المناقشة ، لأنهم محصنون بسياج قدسى ، لا يجرؤ أحد على تخطيه ، اللهم إلا من خلع رداء الإيمان .

فأى مسلم يستطيع أن يضع نفسه فى هذا الموقف؟ ..... لا أحد.

وتكون النتيجة القضاء على كل صوت معارض ، فتترعرع الديكتاتورية الدينية ، وتضيع حقوق الناس بين فكيها ، وتهدر كرامة الإنسان تحت أقدامها ، كما حدث فى القرون الوسطى ، حيث كانت الكنيسة تبسط سلطانها على جميع مجالات الحياة .

إن هذه الصورة لاوجود لها فى الإسلام على الإطلاق ؛ إذ لايعرف فى تعاليمه هذا المصطلح المسيحى : **رجل دين ، وغير رجل دين** ، لأن الكل فى ظل الإسلام مسلمون ، لافرق فى الحقوق والواجبات بين رجل وآخر ، وليس فى الإسلام عصمة لأحد من الخطأ ، كما هو الحال فى المسيحية بالنسبة للبابا ، فكل مسلم خطّاء ، وما دام الأمر كذلك فلكل أحد الحق فى المعارضة ، لأنه لا يوجد رأى لايجوز معارضته ، وبهذا تنتفى شبهة العلمانيين فى إمكان قيام ديكتاتورية

دينية ، إذ مادام الإسلام قد أعطى كل مسلم الحق فى المعارضة ، فلن تقوم فى ظله ديكتاتورية .

أما بالنسبة لما يراه بعض رجال الدين من تحريم النظام البرلمانى ، لأنه يدعى لنفسه حق التشريع ، بينما المشرع هو الله ، فلا ينبغى أن يفهم وضع البرلمان على هذا النحو ، ذلك أن تعاليم الإسلام ومبادئه العامة لايجوز المساس بها ، فهى بمثابة الدستور الذى لايجوز للبرلمان أن يوافق على تشريع قانون يتعارض مع مبادئه . فالتشريع يدور فى أمور فرعية تندرج تحت ظل مبادئ الدستور العامة ، فإذا أردنا أن نبين طبيعة عمل البرلمان فى ظل تطبيق الشريعة الإسلامية ، فإننا نرى أنها لا تخرج عن إقرار تفسير لنصوص القرآن الكريم دون آخر ، وما أكثر آراء العلماء فى التفسير والتأويل ، فنصوص القرآن الكريم لا يجوز الخروج عليها صراحة ، كما هو الوضع بالنسبة لعدم الخروج عن الدستور ، وإنما يجوز لأعضاء البرلمان إقرار قانون يتفق مع رأى عالم ، ورفض رأى عالم آخر ، وبهذا يكون دور البرلمان هو الاختيار والانتقاء من آراء العلماء بما يناسب طبيعة الحياة وظروف العصر .

يجب أن يتحاور رجال الدين مع العلمانيين ، كى يزيلوا ماعلق فى أذهانهم من تصورات غير صحيحة عن علاقة الإسلام بمعطيات العصر ، كما وضح من العرض السابق ، وحتى لا يقتنع الشباب بآرائهم ، فيعتقدون أن بين الإسلام وبين الحضارة الحديثة خصومة لا يمكن تجنبها ، أو أن مبادئ الإسلام لا تساير العصر . وينبغى أن يقوم حوار أيضاً فى هذا الصدد مع من يسمون أنفسهم — أو يسميهم غيرهم — بـ " الإسلاميون الثوريون " أو بـ " الإسلام اليسارى " ، لأن فى بعض تصوراتهم جنوح عن المبادئ العامة للإسلام ؛ فهم يفسرون بعض آيات القرآن الكريم بما يبعدها عن روح الإسلام وتعاليمه ، وعما استقر عليه المسلمون

من أحكام لاتتغير بتغير الزمان والمكان ، ويترلون إسقاطات على بعض الأحداث فى صدر الإسلام بما يشوه تاريخ الرموز الإسلامية ، ولذا وجب الحوار معهم حتى لا يتصيد أعداء الإسلام من آرائهم ما يخدم دعوتهم لمناهضة الإسلام .

الحوار مع الآخر

الحوار مع الآخر ظاهرة إنسانية ، فهو ملازم للفكر والثقافة ، أياً كان نوع هذه الثقافة ودرجة رقيها ، فهو وسيلة اتصال الإنسان مع أخيه الإنسان منذ الحياة البدائية حتى عصر ما بعد الحداثة ، فحيثما اجتمع اثنان فى مكان ما ، إلا وكان الحديث بينهما أول خيط يربطهما ، حاملاً تبادل المعلومات والأخبار ، أو موجهاً الاتهامات والتهديدات إن كان اللقاء لتصفية الحسابات أو لغرض سيطرة أحدهما على الآخر وسلب مامعه من أملاك ومتاع . كذلك الحال حينما ارتقى الإنسان ، وظهرت التيارات الفكرية المختلفة ، والمذاهب العقدية المتباينة ، كان الحوار أحد أهم أسباب التراع الفكرى ، ورغبة كلٍّ فى غلبة فكره وعقيدته على الآخر ، إذ يحرص كل صاحب فكر أن ينشره بين الناس ، فيلتقى بهم ويشرح لهم أفكاره ، ويحاول إقناعهم بما لديه من مسلمات ، وهم بالتالى — إذا كان لديهم فكر مختلف — يحاورونه ، الحجة بالحجة ، والرأى بالرأى .

ولم تخرج رسالات الأنبياء عن هذه الظاهرة ، فلقد حاور الأنبياء والرسل أقوامهم ، حين عرضوا عليهم رسالاتهم ، وشرحوا لهم مبادئها ، طالبين منهم الإيمان بها محذرين من عاقبة عنادهم وكفرهم ، وقد سجل القرآن الكريم أساليب عدة من هذه الحوارات التى دارت بين الرسل وأقوامهم ، فعلى سبيل المثال نقرأ قوله تعالى عن حوار إبراهيم عليه السلام مع قومه :

" وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ " [الأنبياء : ٥١ - ٥٦]

وحوار نوح مع قومه :

" وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * ان لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللَّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ * فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ " [هود ٢٥-٢٧]

وغير ذلك من الآيات المتعددة التى تبين المواقف المختلفة التى حاور فيها الرسل والأنبياء أقوامهم حول القضايا العقدية ، والمبادئ التربوية ، والمشكلات الاجتماعية التى جاء فيها وحى الله بتعاليم ومبادئ إلهية داعيا البشر إلى اعتناقها واتباعها فى جميع مجالات حياتهم ، لتستقيم حياتهم ، ولينالوا رضا الله وعفوه ، فيثيبهم على إيمانهم وعملهم .

أهمية الحوار مع الآخر في الإسلام

لم يرد وجوب الحوار مع الآخر فى أى دين من الأديان كما ورد فى الإسلام ، وكذلك لم يهتم أى مذهب من المذاهب الفكرية بالحوار مع الآخر اهتمام الإسلام به ؛ فقد أمر الله رسوله ﷺ بالحوار مع أهل الكتاب ، مما جعل الحوار الديني مبدأً أساسيًّا فى منهج الدعوة إلى الإسلام ، يقول الله تعالى : " **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ** .... " [آل عمران : ٦٤] وبهذا كان الحوار مع الآخر فريضة من فرائض الإسلام ، التزم به النبى ﷺ ، فأجرى حوارات مع الوفود التى وفدت عليه فى المدينة ، والتى بلغت أكثر من ثلاثين وفداً فى عام واحد ، سمى **عام الوفود** ، وكان من أشهر تلك الوفود ، وفد نصارى نجران ، الذى قدم المدينة بقيادة أسقفهم أبى الحارث ، فتحاور معهم النبى ﷺ . ومما يدل على سماحة الإسلام وتعامله مع الآخر بأسلوب حضارى فى ذلك العصر – الذى لم يعرف المتخاصمون فيه إلا السيف لغةً للحوار – أنه ﷺ سمح لأعضاء الوفد أن يقيموا صلاتهم فى أحد أركان مسجده ﷺ ، وتلك لفتة لم يُعْرَف مثلها فى تلك العصور ، ونادراً – بل يكاد يكون من المستحيل – أن يحدث مثلها فى هذا العصر – فى القرن الواحد والعشرين – الذى يفخر أبناؤه بأنهم قطعوا شأواً كبيراً فى الحضارة ، مما جعلهم يتعاملون مع الآخر بأسلوب مهذب وراقٍ .

ومن المبادئ الإسلامية التى تدعو المسلم إلى التعايش مع الآخر والحوار معه واحترام رأيه :

- الحرية ، فقد قدسها الإسلام ، ودعا إلى كفالتها ، ولو أدى ذلك إلى عدم الاعتراف به ديناً يقول الله تعالى : " **لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ....**" [البقرة : ٢٥٦] ويقول : "...... **فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ ....**" [الكهف : ٢٩] ، " **وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ** " [يونس : ٩٩]

فالله يبين لرسوله ﷺ فى هذه الآيات أن الإيمان متروك لحرية الإنسان ، فلا ينبغى أن يمارس أحد الإكراه لحمل الناس عليه ، لأنه لو شاء الله لأكرههم على الإيمان ، ولكنه تركهم بحريتهم ليكون الإيمان نابعاً من ذات الشخص نفسه حتى يثمر إيمانه ، لأن العمل لا يكون نافعاً إلا إذا فعله الإنسان ، وهو فى كامل حريته .

ولهذا نظر الإسلام إلى المجتمع نظرة شمولية ، فهو لا يفرق بين الناس على أساس معتقداهم ، بحيث يسلبهم حريتهم بسبب هذه المعتقدات ، بل يكفل لهم أسس العيش فى سلام واطمئنان داخل المجتمع الإنسانى ، وأعطاهم حرية كاملة فى ممارسة بناء المجتمع ، فلا زال قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : " **متى استعبدتم الناس وقد ولدهم أمهاهم أحراراً** " ناقوساً يرن فى آذان كل المجتمعات البشرية ، معلناً أن المسلمين طبقوا قواعد الحرية كما أمرهم الإسلام ، واستنكروا كل ما من شأنه أن يسلبها من المجتمع ، لأنها أساس كيان الإنسانية ، ودعامة استقرار المجتمع على قواعد ثابتة ، لا تتزعزع أمام عواصف الدهر وتقلبات الأيام .

ومما يدل على سماحة الإسلام مع الآخر ، أن الرسول ﷺ عقد مع نصارى نجران عهدا مع بقائهم فى أماكنهم ، وإقامتهم فى ديارهم ، دون أن يكون معهم أحد من المسلمين ، وقد تضمن هذا العهد حمايتهم ، والحفاظ على حرياتهم الشخصية والدينية ، وإقامة العدل بينهم ، والانتصاف من الظالم . وقام الخلفاء من بعده على تنفيذه حتى عهد هارون الرشيد ، فأراد أن ينقضه ، فمنعه محمد بن الحسن ، صاحب الإمام أبى حنيفة . وفى هذا دلالة واضحة على روح التسامح فى معاملة غير المسلمين ، إذ حافظ على حرياتهم فى العبادة ، وفى إقامة شعائرهم الدينية من غير تضييق عليهم ، ولا تعكير صفو الجو الروحى لطقوسهم الدينية ، لأنه احترمها ، واتخذ من الإجراءات ما يحمى قدسيتها .

– تقبله للثقافات والحضارات الأخرى ، مما يدل على أن فكرة الصراع الحضارى لا وجود لها فى مبادئه وتعاليمه ، ويوضح نظرته العالمية الواسعة إلى الأديان والأجناس الأخرى ، ولهذا أقام حضارة كبرى أسهم فيها أهل هذه الأجناس والأديان فى كل ناحية من نواحى الحياة ، والفكر ، والفلسفة ، والأدب ، والفن ، والطب ، واللغة ، والتصوف ، وكانت تلك الحضارة تأليفاً وتوحيداً لكل الحضارات قبلها فى : الصين ، والهند ، وفارس ، والروم ، واليونان .

شيد المسلمون على كل هذه الأسس بناءً حضارياً ضخماً ، اشترك فيه العلماء من جميع الأجناس والأديان ، فكانت بحق حضارة لجميع أهل الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم ، ثم انتقل هذا التراث الحضارى إلى الأجيال اللاحقة ، فكان مصدراً للحضارة الحديثة ، وقد عبر أحد العلماء عن دور المسلمين فى بناء الحضارة الإنسانية بقوله : : " **إن المسلمين لم يحرصوا فقط على أن يكونوا ورثة الأنبياء ، بل ورثة الفلاسفة كذلك .** "

فالإسلام دين يحث أتباعه على الاتصال بثقافة الآخر والأخذ منها اتباعاً لقول رسـول الله ﷺ : " **الكلمة (الحكمة) ضالة المؤمن ، فحيث وجدها فهو أحق به**[1] ، فهو لم يغرس فى نفوس المسلمين حقداً ضد أى طائفة أخـرى من البشر تعتنق ديناً آخر ، ولم يحرم عليهم التزود بأى نـوع مـن الثقافـات الإنسانية ، ولم يفرض عليهم شيئاً يعزلهم عن غيرهم من أجناس البشـرية ، ولم يأمرهم بإجبار أحد على اعتناق الإسلام ، فكان بذلك سـاحة ضـمت جميـع الناس ، وبوتقة صهرت جميع الثقافات ، وواديا أمن فيه الناس على أنفسـهم ، وعقائدهم ، وأفكارهم ، واطمأنوا على سلامة أموالهم وممتلكاتهم ، فنظروا إليـه غير خائفين ، وفكروا فى مبادئه غير وجلين ، ودرسوا أحكامه فى جو من الحرية والديمقراطية ، فجاء اعتناق من اتخذه ديناً عن رغبة واقتناع ، وعاش فى ظل دولته من بقى على دينه آمناً مطمئناً ، يسعى إلى رزقه ، ويشارك فى مجـالات الدولـة المختلفة تحت راية الإسلام التى ترفرف معلنة أنها مظلة الإنسان ، من حيث هـو إنسان ، لأنه عبد الله الذى أنزل هذا الدين على محمد ﷺ .

اتبع المسلمون هدى رسول الله ﷺ فى هذا المجال فحاوروا أهل الأديان بالتى هى أحسن ، وتعايشوا معهم على أساس الأخوة الإنسانية ، فلم يجبروهم علـى اعتناق الإسلام ، ولم يضطهدوهم لمجرد أنهم يخالفونهم فى العقيدة ، بـل رفعـوا عنهم ظلم إخوانهم فى العقيدة واضطهادهم لهم ، فقد حدث أن عمرو بن العاص حين فتح مصر ، كان البطريرك المسيحى بنيامين مختفياً ، لأن وطـأة اسـتبداد البيزنطيين **المسيحيين** فى البلاد كانت عنيفة ، وطبقاً لنص تاريخ البطاركة : لما عرف عمرو بذلك كتب إلى أعمال مصر كتاباً يقول فيه : الموضع الـذى فيـه

[1] الترمذى ٥١/٥ رقم ٢٦٨٧ ، تهذيب التهذيب ١٢١/١

بنيامين بطرك النصارى القبط له العهد والأمان والسلامة من الله . فليحضر آمناً مطمئناً ويدبر حال بيعته وسياسة طائفته . فلما سمع بنيامين هذا عاد إلى الاسكندرية بفرح عظيم بعد غيبة ثلاثة عشرة سنة . منها عشر سنين لهرقل الرومى ، وثلاث سنين قبل أن يفتح المسلمون الإسكندرية.[١] ، ثم التقى عمروبنيامين " فلما رآه (عمرو) أكرمه . وقال لأصحابه : إن فى جميع الكور التى ملكناها إلى الآن ما رأيت رجلا يشبه هذا . وكان الأب بنيامين حسن المنظر جداً ، جيد الكلام بسكون ووقار . ثم التفت عمرو إليه وقال له : جميع بيعك ورجالك اضبطهم ودبر أحوالهم ."[٢]

لقد أرسى الإسلام قاعدة صلبة فى مجال التعامل مع الآخر ، باختياره أسلوب الحوار ، كى يوضح الفكر البشرى ويبين مدى صلته بالتراث الإلهى ، ولا يكون ذلك إلا باحترام الحرية فى التعبير ، وسماع ماعند الآخر ، وعرض مبادئ وتعاليم الإسلام عليه دون إكراه ، بل بالتفاهم والأدلة العقلية— وبالتعبير الإسلامى : " **بالحكمة .... وبالمجادلة بالتى هى أحسن** – ؛ إذ لا يمكن للشعوب أن تتقدم إلا بتبادل المعلومات ، ومناقشة القضايا : قضايا السلم والعدل ، وغيرهما من المشكلات التى يواجهها الإنسان فى مسيرة بنائه الحضارى ، والتعاون فيما بين الشعوب على أساس احترام الآخر ، ومعرفة ماعنده من مبادئ وقيم .

---

(1) وليم سليم : الحوار بين الأديان صـ ١٠٨ ، نقلا عن ساويرس ابن المقفع : تاريخ بطاركة الاسكندرية . طبعة افتس — الجزء الثانى .

(2) المصدر السابق صـ ١٠٩ . ويقول المؤرخ القبطى الأسقف يوحنا النقيوسى : " احترم عمرو أملاك الكنيسة ، ولم يقترف عملا يعاب عليه . فحيا أهل البلاد عهد السلام الدينى ، وإعادة نشاط الكنيسة الوطنية ، وأديرة وادى النطرون ودير أنبا مقار ، وجاء الرهبان أفواجاً يؤكدون إخلاصهم للقائد العربى " حسين فوزى : سندباد مصرى صـ ١٦٤ .

ضرورة الحوار مع الآخر
فى العصر الحديث

أصبح الحوار مع الآخر ضرورة فى عالم اليوم ؛ لأن المجتمعات المعاصرة ضمت العديد من الأفكار والعقائد والمذاهب الفكرية ، بل إن المجتمع الواحد المحدود ، قد يضم أكثر من عقيدة ، ويعتنق أفراده أكثر من مذهب فى جميع المجالات : سياسية ، واقتصادية ، واجتماعية ...و...و...الخ ، ولذا كان الحوار فى حد ذاته مطلباً حيويًّا وضرورة قصوى ، وعلى الأخص :**حوار الأديان** ، لأن الدين لازال يلعب دوراً كبيراً فى حياة الشعوب ، إذ يرسم للفرد أسلوب حياته ، ويحدد له طبيعة العلاقة مع الآخر ، وبالتالى فهو عنصر أساسى فى استقرار المجتمعات ، ورسم حدود العلاقات بين الشعوب ، حتى فى المجتمعات التى أعلنت أن العلمانية هى أسلوبها فى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ؛ فقد رأينا أن نزعة التعصب الدينى ، والتبشير بقيام صراع بين الحضارات على أساس ثقافى **ودينى** صدرت من مجتمع يعتبر نفسه زعيم العلمانية فى العصر الحاضر ، إذ أعلن صمويل هنتنجتون — وهو أمريكى نشأ على الثقافة العلمانية — فى كتابه " صدام الحضارات " أن الصراع فى العالم الجديد لن يكون أيديولوجياً ، أو اقتصادياً ، بل سيكون الانقسام الكبير بين البشر ، والمصدر الغالب للصراع **ثقافياً ، ودينياً** :

— مركزاً فى كثير من صفحات كتابه على أن الصدام بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية واقع لامحالة ، فهو — أى الإسلام – الخطر الماثل أمام

أعين الغرب " المتحضر " ، يبدو ذلك واضحاً من قول أحد المراقبين حسب زعمه : " **الكابوس الخاص للأوربيين هو الذكرى التاريخية (إغارة المسلمين فى أوربا الغربية ، والأتراك على أبواب فيينا)**" [١]

- ومبيناً لهم ما يحدث فى تركيا ، حيث يقول : " بالنسبة لتركيا – كما هو لدول أخرى كثيرة – أثار انتهاء الحرب الباردة بالإضافة إلى الخلل الناتج عن النمو الاقتصادى والاجتماعى قضايا أساسية عن " الهوية القومية والانتماء العرقى " ، وكان **الدين** هناك ليقدم الإجابة ، وأصبح الميراث العلمانى الأتاتوركى والنخبة التركية لثلثى قرن ، تحت النيران وبشكل متزايد . تجربة الأتراك فى الخارج أدت إلى إثارة عواطف الإسلاميين فى الداخل . الأتراك العائدون من ألمانيا الغربية " كان رد فعلهم على العداء هنا هو العودة إلى ما هو مألوف ، **وأن ذلك هو الإسلام** " [٢]

بل إنه يؤكد فى مواضع عدة من الكتاب على أن الصراع بين الحضارتين : الإسلامية والغربية ، مستمر : هناك خصومة بين القيم العلمانية والقيم الإسلامية ، وهناك خصومة تاريخية بين الإسلام والمسيحية ، وهناك شعور بالغيرة من القوة الغربية ، وهناك استياء من السيطرة الغربية الناجمة عن بنية الشرق الأوسط السياسية بعد زوال الاستعمار، وعندهم – أى المسلمين – شعور بالمرارة والامتهان نتيجة المقارنة البغيضة بين إنجاز الحضارتين : الإسلامية والغربية فى القرنين الأخيرين " طالما أن الإسلام يظل (وسيظل) كما هو ، والغرب يظل (وهذا غير مؤكد) كما هو الغرب ، فإن الصراع الأساسى بين الحضارتين الكبيرتين وأساليب كل منهما فى الحياة سوف يستمر فى تحديد

(1) صدام الحضارات صـ ٢٣٨

(2) المصدر السابق صـ ٢٤٠

علاقتهما فى المستقبل ، كما حددها على مدى الأربعة عشر قرناً السابقة.......

إن حرباً مجتمعية باردة مع الإسلام سوف تساعد على تقوية الهويـــة الأوربيـــة بشكل عام ، فى وقت حاسم بالنسبة للوحدة الأوربية . ومن هنا قد يكون هناك مجتمع فى الغرب مستعد ، ليس لدعم حرب مجتمعية باردة فقط مع الإسلام ، بل ولتبنى سياسات تشجع عليها . فى سنة ١٩٩٠م قام " برنارد لـــويس " ، وهـــو مفكر غربى بارز مهتم بالإسلام ، بتحليل " **جذور الغضـــب الإســـلامى** " واستنتج قوله : " يجب أن يكون واضحاً الآن أننا نواجه حالة وحركة تتخطـــى بكثير مستوى القضايا والسياسات والحكومات التى تتابعها ، وهذا ليس أقل من صدام حضارات ، والذى ربما كان غير منطقى ، ولكنه بالتأكيد رد فعل تاريخى لتنافس قديم ضد تراثنا اليهودى المسيحى وحاضرنا العلمانى ، وانتشار كل منهما على مستوى العالم ، ومن المهم جداً أننا من جانبنا لا يجـــب أن نســـتثار إلى رد فعل تاريخى ولا منطقى معادل ضد ذلك المنافس ."[1]

كان من الطبيعى بعد ظهور هذه الفكرة ، صراع الحضارات على الساحة الثقافية العالمية أن يتصدى المفكرون من المسلمين لهذا الطرح غـــير الســـليم – منطقياً ، وفكريا ً، وتاريخياً – ، موضحين أن تعاليم الإسلام تدعو إلى الحوار لا إلى الصدام ، ويبدو ذلك واضحاً من آيات القرآن الكريم ومن أحداث التـــاريخ الإسلامى ، كما ذكرنا ذلك سابقاً ، فالإسلام يحث المسلم علـــى الاعتـــراف بالآخر والحوار معه ، لكى يعيش الإنسان آمناً على دينه ، مطمئناً على حياتـــه ، واثقاً من صدق المشاعر بينه وبين أخيه الإنسان ، وإن اختلف معـــه فى الـــدين والعقيدة ، وبهذا احتل الحديث عن هذا الحوار وضرورة التعاون على المســـتوى الإقليمى والدولى مساحة كبيرة فى دوائر الفكر الإسلامى ، بكل أنواعه : مـــن

---

(1) المصدر السابق صـ ٣٤٣ - ٣٤٤

الكلمة المكتوبة إلى الصوت المسموع ، إلى الصورة المرئية ، منددا باتهام المسلمين بأنهم أعداء الحضارة الحديثة ، معلناً استعداد المسلمين للحوار على جميع المستويات ، وفى كل المجالات التى تتعلق بحياة الإنسان وسلامته ، وباستقرار المجتمعات وأمنها .

بدأ الحوار مع الآخر ، فعقدت العشرات من الندوات والمؤتمرات فى أماكن شتى فى أرجاء المعمورة ، دون أن يعرف أحد من المسلمين المتحاورين ماهية الموضوعات التى يقوم عليها الحوار ، ولاطبيعة الأهداف التى يريدون الوصول إليها . لقد عقدت حتى الآن أكثر من أربعين جولة من الحوار الإسلامى — المسيحى فى عواصم متعددة اتخذت شكل مؤتمرات ، وندوات ، وحلقات دراسية ، ولقاءات مشتركة ، وألقيت فيها بحوث حول السلام والتعايش السلمى ، والأخوة الإنسانية ، كما تبودلت كلمات تنضح بالعطف والمودة والرحمة الإنسانية ، وتحددت فى بعضها — وهو قليل جداً — بعض الموضوعات التى تتصل بالتعايش السلمى — وغالباً ماكان الجانب المسيحى هو الذى يختارها — ولكن لم يصل المشاركون فيها إلى نتائج ملموسة ، يمكن تنفيذها أو رؤيتها على أرض الواقع ، فهى — غالباً — لا تعدو أن تكون اجتماعات للكلام وتبادل التحيات الرسمية .

ولهذا ينبغى أن يحدد أسلوب الحوار ، ومنهجه ، وقضاياه ، والأهداف التى يريد المتحاورون الوصول إليها . أما **أسلوب الحوار** فينبغى أن يكون على النحو التالى :

١- لا يكون الحوار متكافئاً إلا إذا كان بين قوتين متعادلتين يعترف كلٌ منهما بالآخر ، إذ يحدث التصارع عندما تجعل إحدى الثقافات من نفسها الثقافة العظمى ، بينما كل الثقافات الأخرى ثقافات صغرى ، ويظن أصحابها أن

ثقافتهم أعلى وأعظم من الثقافات الأخرى ، الثقافات الصغرى . نحن نعيش فى القرن الواحد والعشرين ، حيث تواجه البشرية نظاماً عالمياً جديداً ، فهل يوجد فى هذا النظام أرضية مشتركة ، يقوم عليها الحوار بين الحضارات والثقافات المختلفة ؟ وكيف تبدو هذه الأرضية المشتركة فى عالم يريد أن يعيد نظام الهيمنة القديم فى ثوب جديد ، تحت شعارات مختلفة ؟ إن الحوار لن يكون مثمراً فى هذا الجو إلا إذا تحقق شرط أساسى ، ألا وهو الاعتراف المتبادل بالتقاليد المميزة للحضارة الإنسانية ، قد يكون هذا أمراً صعباً على أولئك الذين يمارسون الهيمنة على العالم ، وليس عندهم الاستعداد للتنازل بأنهم الأقوى ، والأكثر تفوقاً فى مجال التكنولوجيا ، ولكنه شرط بالغ الأهمية، إذا كان الطرفان صادقى النية فى الوصول إلى صيغة مشتركة للتعايش السلمى . إن تحقيق السلام فى العالم يتوقف على تحقيق السلام بين الأديان، ولن يتحقق السلام بين الأديان إلا بإجراء حوار بين أصحاب هذه الأديان ، ومن شروط نجاح أى حوار على أى مستوى أن يكون كل من طرفى الحوار نداً للآخر ، وهذا يعنى ضرورة تحقيق المساواة التامة بينهما فى كل ما يتعلق بالحوار المراد إجراؤه بين الطرفين .

٢- عدم المساس بالعقائد فى جلسات الحوار ، وهذا لا ينفى ترك أو إهمال الدراسات العقدية فى المدرجات الجامعية ، وفى حلقات النقاش الأكاديمية ، فذلك مرفوض رفضاً باتاً ، لأن الأديان بالنسبة لأصحابها حقائق مطلقة ، لايجوز تعديلها ، أو التنازل عنها ، فالانتقاص من الإيمان ، ولو قيد شعرة أو أكثر ، يخل به ، ويفقده حقيقته ، وبالتالى لا يكون إيماناً . فهل عند الغربيين استعداد للتنازل عن بعض عقائدهم

المسيحية ؟ لا أظن ذلك ، بل العكس هو الصحيح ؛ إذهم ينتظرون من المسلمين أن يتنازلوا عن بعض مسلماتهم ، كما حدث فى إحدى ندوات الحوار التى عقدت بالقاهرة ؛ إذ اعترض المسيحيون المشاركون فى الندوة على تركيز المسلمين على موضوع القدس ، وهو من المقدسات الإسلامية ، كما أنكر بعضهم وصف الإسلام بالربانية ، وأصروا على موقفهم إزاء الإسلام ، من ناحية أن محمداً ليس نبياً ، ولا كتابه كتاباً إلهياً.[1] ولهذا يجب على المتحاورين أن ينحوا مسائل العقيدة جانباً ، ويركزوا فقط على المسائل الأخلاقية المشتركة لينطلقوا منها إلى منهاج للتعايش السلمى . وليس الهدف من الحوار الوصول إلى موقف وسط بين العقائد ، أى الوصول إلى توفيق تلفيقى ، يقوم على اتخاذ موقف نسبى عام ، بل أساس اللقاء التفاهم ، ومعرفة كلٍّ ما عند الآخر ، وتصحيح للمعلومات غير الصحيحة عند كل طرف عن الطرف الآخر. ثم إن الحوار يكشف لصاحب الدين أو العقيدة — من خلال دين الآخر، أو عقيدته ، أو ممارسته لها – مفاهيم جديدة ، وأساليب للممارسة تضيق المسافة بين المبدأ والتطبيق ، تساعده على الاقتراب من مثله الأعلى ... ففى الحوار نكتشف التكامل : العطاء والأخذ ، الإثراء المتبادل . حينئذ يصير من الممكن الاعتراف بأن الآخر مصدر للإلهام وللقوة ، وينتفى التعالى الذى يستند إلى شعور بالكمال والاكتفاء الذاتى . بل يكتشف كل واحد أنه يحتاج إلى الآخر .... مع الاحتفاظ بهويته . فينظر الواحد إلى الآخر على أن كل واحد لديه شىء يتعلمه من الآخر ويستفيد به ، وأن لدى كل

---

[1] علماء الإسلام يردون على هجوم الجانب المسيحى بندوة الحوار صـ ١ على شبكة ليلة القدر .

واحد أيضاً شيء يقدمه ، فتنحل عقدة التفوق التي تعطل تبادل الفكر والتفاهم.[1]

٢- الاعتراف المتبادل ، فكما أن المسلم يعترف بوجود عقائد أخرى ويسميها ديناً ، وإن لم يؤمن بها لاعتقاده أنها باطلة ، فكذلك يجب على من يتحاور مع المسلمين الاعتراف بالإسلام ديناً ، فإذا تعذر ذلك ، فلا أقل من احترام تعاليم الإسلام وقيمه ، كما تحتم قواعد الحضارة الحديثة على الإنسان المتحضر أن يحترم تقاليد وعادات الآخر ، وإن كانت في رأيه لا تتفق مع المنطق والعقل . فإذا تعذر ذلك على بعض المتشددين ، فلا مانع من إجراء حوار لمنع المواجهة المسلحة بينهم وبين المسلمين ، ولإرساء قواعد ومبادئ للتعايش السلمي بين الناس جميعاً ، بشرط أن تكون لغة الحوار مؤدبة ، وأن يلتزم المتحاورون بالموضوعية ، بعيدا عن المهاترات والألفاظ التي تجرح شعور الأطراف المتحاورة.

٣- احترام كل طرف من أطراف الحوار ثقافة الآخر وعقيدته ، يقول الله تعالى : " **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا...** " [الحجرات : ١٣] فالاتصال الثقافي يجب أن يقوم على أساس تبادل المعلومات والخبرات ، لابقصد هيمنة ثقافة على أخرى ، أو فرض تقاليد شعب على آخر ؛ فلا يجوز لطرف أن يملي على الطرف الآخر ما يجب عليه عمله في مجال الثقافة ، أو في مناهج التعليم في مراحله المختلفة ، أو في توجيه الرأي العام ، عن طريق وسائل الإعلام المختلفة : المقروءة ، والمسموعة ، والمرئية ، فإن ذلك كله من خصوصيات كل أمة ،

---

[1] وليم سليم : حوار الأديان صـ ١٧٣ - ١٧٤

فلا يخضع لتوجيهات خارجية، أو إملاءات أجنبية . فـإن احتاجـت إلى تطوير لمواكبة العصر، أو تعديل لتلافى عجز فيها ، فينبغى أن يكون ذلك نابعاً من شعور داخلى ، ليأخذ طريقه فى إطار الهوية ، بحيث لا يخرج عن التعاليم الدينية ، ولا يبعد عن القيم والمبادئ الأخلاقية ، ولا ينحرف عن العادات والتقاليد المرتبطة بالتاريخ والروح الإسلامية . ومن هنا يجـب أن يرفض رفضاً باتاً كل إشارة أو تلميح إلى وجوب حذف آيـات قرآنيـة بعينها من المناهج التعليمية ، أو إهمال أحداث تاريخية تدين مجموعة بشرية معينة ، لأن ذلك — لو حدث — يتنافى مع أهم شرط من شروط الحـوار الإيجابى ، ألا وهو عدم تدخل أى طرف فى الشئون الخاصة الـتى تتعلـق بهوية الطرف الآخر وثقافته وعقيدته .

٤- الاعتراف بالأصل الواحد للخليقة كلها ، كما قال تعالى : " **يَـا أَيُّهَـا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ...**" [النساء : ١] ، فلا يتعالى جنس على آخر، ولا يُفَضَّل شعب بسبب اللون ، أو الجـنس ، أو العقيدة ، أو بسبب قدراته العسكرية ، أو الاقتصـادية ، أو العلميـة والثقافية .

أما منهج الحوار فيجب أن يكون على النحو التالى :

١- نسيان الماضى بما فيه من صراعات وأحداث مؤلمة ، قـدتفجر — لـو لم تنس — النفور بين المتحاورين ، وتلقى بظلال قاتمة على جـوّ الحـوار ، فتحفز كل طرف ضد الآخر ، ملقياً بالشكوك فى كل مـا يطـرح مـن قضايا ومشكلات على مائدة الحوار .

٢- حرية العقيدة ، يقول تعالى : " لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .." [البقرة : ١٥٦] ، فلا يجوز لأحد أن يفرض عقيدته على الآخرين بالقوة ، بل يُتْرَك الأمر للناس ، يعتنقون ما يرونه صحيحاً ، دون ضغط أو إكراه .

٣- إتباع المنهج العقلى فى طرح القضايا والمشكلات ، وسبل حلها ؛ لأن العقل هو القاسم المشترك بين الناس جميعاً ، على اختلاف مللهم ونحلهم، فهو أقرب المناهج لالتقاء الناس ، مختلفى العقائد والملل ، وهو أقصر الطرق للوصول إلى رسم منهج مشترك للتعايش السلمى .

٤- عقد ندوتين سنوياً ، يفصل بينهما أربعة أشهر ، تُخَصَّص للإعداد الجيد، وذلك باختيار موضوع واحد ، يُستَكْتَب فيه علماء ومفكرون على مستوى عالٍ جداً ، ثم تناقش أوراقهم فى الندوة ، بحيث تخرج المناقشة فى صورة ورقة واحدة ، تجمع ما فى الأوراق كلها من أفكارومبادئ . ثم يُعْقَد مؤتمر تناقش فيه الورقتين اللتين أعدتهما الندوتان ، ولا يعقد هذا المؤتمر إلا بعد مرور أربعة أشهر على عقد الندوة الثانية ، يكون العمل فيها مُرَكَّزا على استخلاص ما فى الورقتين فى ورقة واحدة ، تُعْرَض على المؤتمر ، ثم يخرج منه بيان بالمبادئ التى اتفق عليها المؤتمرون . وإن لم يحدث ذلك كانت لقاءات الحوار الدينى بلا هوية تعرف بها ولا طابع يميزها ، ولا نتيجة من ورائها تجنى الشعوب ثمرتها .

٥- يُكَوَّن جهاز إدارى تكون مهمته العمل بكل الوسائل على تفعيل ما صدر عن المؤتمر من مبادئ وتوجيهات على كل المستويات الإقليمية والدولية ، ولو اقتضى الأمر رفعها إلى المنظمات الدولية لإصدار قرارات مُلْزِمَة بتفيذ هذه المبادئ ، فيجب القيام بذلك ، وإلا أصبحت جلسات الحوار الدينى عبارة عن اجتماعات شكلية ، وتوصيات ونتائج لا تتعدى كونها كلمات

سُطِّرَت على ورق ، و بالتالى تصبح لقاءات فاشلة ، لا فائدة فيها ، اللهم إلا تعطيل مصالح المسلمين ، وتضييع الوقت فى مباريات كلامية ، وخطب جوفاء لا مدلول لها .

موضوعات الحوار

لاشك أن موضوعات الحوار الديني ، التي يجب وضعها على مائدة البحث كثيرة كثرة تجعل من المستحيل حصرها ، لأنها تتعلق بحيـــاة الأفـــراد ، وحيـــاة الشعوب . وعلى الرغم من كثرة عناصرها الماثلة أمامنا ، فهي أيضاً متجـــددة ، ومتطورة ، وخاصة في العصر الحديث ، عصر التكنولوجيا ، وعصر مـــا بعـــد الحداثة ، الذي يُخْرِج لنا كل يوم من الأطروحات وما يتبعها من مشـــاكل مـــا يدفع أجهزة الرصد إلى العمل بأقصى سرعة لملاحقتها وتقييمها . ولكن هـــذا لا يمنع من تناول أهم ما فيها ، وأكثر إلحاحاً لضبطه وتصويبه ، لتستقيم العلاقة بين الشعوب على أساس سليم ، يسعد الأفراد ، ويساعد على ازدهار الأمم وتقـــدم المجتمعات .

ومن اللافت للنظر أن بعض القضايا قديم قدم قيام المجتمعات الإنســـانية ، على الرغم من تطوير مفهومها ، وتنوع مضامينها بتطـــور الحيـــاة الإنســـانية ، وأخري أفرزها التقدم الحضاري والاكتشافات العلمية . ويجب على المتحـــاورين أن يقدموا — في قائمة موضوعاتهم — الأهم على المهم ، حتى يسهموا في الإسراع بمحاولة حل المشاكل التي تتعلق بحياة الناس ، أفراداً وجماعات .

ومن أهم الموضوعات التي يجب بحثها :

قضايا الإنسان :

فقد كرمه الله — كما أخبرت بذلك كل الكتب المقدسة - ، وركـــزت علـــى تكريمه معظم — إن لم يكن كل — الاتجاهات الفكرية في كل العصور والأزمان ،

لذا يجب أن توجه الدعوة إلى بحث ما يجب عمله لحفظ حياته ، أياً كان لونـــه ، أوعقيدته ، أوجنسه ، فلا ينبغى أن يستعلى إنسان علـــى أخيـــه ، أو يظلمـــه باغتصاب حق من حقوقه المشروعة : حفـــظ الـــنفس ، والـــدين، والعقـــل ، والنسل ، والمال . كذلك لاينبغى أن يهان ، أو يذل من ثقافة أخرى علـــى أى مستوى : ثقافى أو إقتصادى ، أو سياسى ، أو اجتماعى ، وعليـــه فيجـــب أن يكون موضوع **حقوق الإنسان** أول ما يوضع على مائدة الحوار الـــدينى ، مـــن حيث **حرية العقيدة** ، يقول الله تعالى : " **لاَ إِكْرَاهَ فِي الـــدِّينِ** .. " [البقـــرة : ١٥٦]، فلا يجوز لأحدأن يفرض عقيدته على الآخر بالقوة ، بـــل يُتْـــرَك الأمـــر للناس، يعتنقون ما يرونه صحيحاً ، دون ضغط من أى نـــوع . **والعـــدل** ، يقول تعالى : "**.... وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُـــوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى....**" [المائدة : ٨] ، ومن مقتضيات العدل حق كل شـــعب فى أن يعيش فى وطنه دون اعتداء عليه من أى نوع ، أو محاولة للسيطرة علي مقاليـــد أموره . **وحرية التعبير** لأن التقييد فى هذا المجال يزيد الأمور غموضاً ، فلا يعرف مايكنه البعض للآخر ، وبذلك تنمو الدسائس و الفتن . **والمساواة** ، فلا فضـــل لأحد على آخر ، وذلك يقتضى الاعتراف بحق كل شعب فى الموارد الطبيعيـــة ، بحيث تُقَسَّم بالتساوى على كل شعوب الكرة الأرضية ، فـــلا اســـتغلال ، ولا احتكار ، وإنما تعاون بين الناس على تنمية الموارد ، وتوزيعها على الشـــعوب ، بحيث ينال كلٌّ ما يضمن له حياة كريمة ، تليق بالإنسان الذى كرمه الله .

هذه هى القواعد الأساسية فى مجال حقوق الإنسان ، ويجب على أطراف الحوار الاعتراف بها ، وإعلان هذا الاعتراف على الملأ ، ثم يبـــدأ الحـــوار بـــين الأطراف للوصول إلى صياغتها فى مبادئ عامة ، يلتزم الجميع بتطبيقهـــا بكـــل

الوسائل ، حتى وإن اقتضى الأمر إنشاء تحالف دولى لفرضها بالقوة على من يرفضها .

حقوق المرأة :

من الطبيعى أن تتمتع المرأة بكل ما يتمتع به الرجل ، من الناحية الإنسانية ، فكل مايتوصل إليه الحوار الدينى فى بحث موضوع " حقوق الإنسان " يسرى على المرأة ، ثم تنفرد ببحث آخر ، ليرفع عنها ما يلحقها من ظلم باعتبارها أنثى ، وذلك من حيث حقوقها كزوجة ، ابتداءً من حقها فى اختيار شريك حياتها ، إلى ممارستها فى إدارة شئون الأسرة ، وتربية أولادها ، وحقها كمواطنة ، لها ما للرجل من : تعليم ، وعمل ، ومشاركة فى شئون الأمة : الاقتصادية ، والسياسية ، والاجتماعية .... وغير ذلك من الأمور التى يمارسها الرجل ، ما دام ذلك فى استطاعتها .

البيئة :

قد يبدو للبعض أن هذا الموضوع بعيد كل البعد عن موضوعات الحوار الدينى ، لأن مفرداته من نظافة وتشجير وأمثالهما لا تدخل فى نطاق الموضوعات المثيرة للجدل ، والتى تحتاج إلى اتفاق بين ممثلى السلطة الروحية ، ولكن هذا الفهم غير صحيح ، فلم تعد المشاكل البيئية قاصرة على هذا التصور، بل امتد نطاقها ، فأصبحت مسألة دولية تحتاج إلى تضافر كل القوى ، بما فيها المؤسسات الدينية ، ذلك أن البيئة مهددة بالمنتوجات البيولوجية، من أسلحة ومتفجرات ، وعلى رأسها الأسلحة النووية ، التى أصبحت أكبر هاجس للإنسان ، تقض

مضاجعه ، وتهدد وجوده ، فهو فى قلق دائم ، وخوف مستمر من آثار هذه المخترعات ، لا من حيث توقعه لاندلاع حرب نووية فقط ، بل من تسرب هذه الإشعاعات النووية ، كما حدث فى تشرنوبيل قبل عدة سنوات ، ومن انتشار إشعاعاتها بأى طريق آخر ، حيث تدمر الكائنات الحية المحيطة به ، بما فيها من الطعام والشراب الذى ينقل إليه الأمراض والعلل التى لا تبقى ولا تذر . ولهذا ينبغى بحث هذا النموذج فى لقاءات الحوار الدينى ، واتخاذ قرارات وفتاوى دينية لتحريم هذه الصناعة ، ومناشدة كل الدول ، بلا استثناء ، حتى الدول العظمى بالتخلص من هذه الصناعة كلية ، وتدمير كل مالديها من قنابل ومتفجرات نووية ، ومناقشة السبل التى يمكن أن تتخذها كل المؤسسات الدينية لتخليص العالم من هذا الكابوس الذى يجثم على صدور الناس ، حتى يشعر الإنسان بالأمن والسلام ، فتهدأ نفسه ليتفرغ للإبداع فى المجالات التى تساعده على التطور الحضارى ، وتعيش كافة الشعوب فى أمن واطمئنان.

توزيع الثروات :

لاشك أن الله سبحانه وتعالى خلق الأرض، وأودع فيها ثروات متعددة ، ليستخدمها الإنسان فى حياته ، وعليه فلا يجوز لشعب أن يحتكر هذه الثروات ويحرم منها الآخرين ، كما هو واقع اليوم فى عالمنا المعاصر، إذ يستأثر ٢٠% من سكان الأرض بـ ٨٠% من هذه الثروات . وهذا ظلم يجب رفعه عن المحرومين من التمتع بثروات الكرة الأرضية . وعليه فيجب على المؤسسات الدينية بحث هذا الموضوع فى لقاءات الحوار الدينى ، للوصول إلى قواعد تعطى كل ذى حق حقه ، فلا ظلم ، ولا احتكار ، ولا استغلال ، بل تعاون ، وتضافر للجهود ،

حتى يكون هناك توازن بين الشعوب فى الانتفاع بهذه الثروات ، كُـلٌّ حسب طاقته ، ولا يُحْرَم منها من لم تؤهله طاقته وعمله بل يأخذ ما يكفيه فى حياته ، حتى ولو اقتضى الأمر إنشاء صندوق لمساعدة الشعوب الضعيفة — وكذلك الأفراد — ليعيشوا عيشة إنسانية كريمة .

هذه نماذج فقط من القضايا التى يجب أن تطرح على مائدة الحوار الدينى؛ إذ مما لاشك فيه أن هناك العديد من القضايا والمشكلات التى يجب بحثها ، فعلى المكلفين بالتحضير لهذه الندوات والمؤتمرات حصر قضايا العصر التى تحتاج إلى بحث ، ووضعها فى قائمة حسب أهميتها بالنسبة لحياة الأفراد ، وضرورتها لاستقرار المجتمعات الإنسانية وأمنها .

أهداف الحوار الدينى :

للحوار الدينى أهداف متعددة ومتنوعة على جميع الأصعدة : فردية وجماعية ، إقليمية ودولية ، ثقافية وفكرية ، ومن أهم هذه الأهداف : **معرفة الآخر** ، إذ يعرض كلٌّ ما عنده أمام الآخر ، سواء كان ذلك يتعلق بحياة الإنسان فرداً أوجماعة ، أو باستقرار حياة الشعوب وأمنها . يعرف المرء رأى الآخر فى العدل والمساواة والتكافل ، ومدى استعداده للمشاركة فى وقف العدوان على الشعوب ، والإسهام فى العمل العام لحماية الإنسان من الضياع والهلاك تحت عجلة القوى الاقتصادية عابرة القارات ، وفى مواجهة الأسلحة الفتاكة التى تُسْقِط كل يوم — بل كل ساعة — العشرات — بل المئات — من القتلى والجرحى ممن لاذنب لهم ولا جريمة ارتكبوها ، اللهم إلا الرغبة فى فرض الهيمنة والسيطرة

من المتشددين والمتطرفين من الجماعات غير الشرعية ، أو من جانب عصابات إقليمية ، أو من جانب قوى دولية عظمى .

إن مجرد الجلوس على مائدة الحوار الديني بنية صادقة من الطرفين فى التعايش السلمى ، يترع فتيل الاختلاف من المتخاصمين ، ويمهد الطريق لبدء حقبة جديدة يتعاهد فيها الطرفان على العمل سوياً لرفع الظلم عن المظلومين ، ومساعدة الضعفاء على حماية أنفسهم وأموالهم وأوطانهم ، والوقوف جبهة واحدة أمام كل من يعتدى — أو يفكر فى الاعتداء — على غيره ، أو يستبيح حرمات الآخر ، سواء على مستوى الأفراد أو الشعوب

إن صدام الحضارات فكرة شيطانية ، يراد بها نشر العداوة والبغضاء بين الشعوب ، مما يعطى قوى العدوان ذريعة للسيطرة على ثروات الشعوب ومقدراتها ، ولذا يجب أن يركز الحوار الديني على التعايش السلمى بين الأمم ، وإن اختلفت عقائدها ، وتنوعت ثقافاتها ، وتعددت اتجاهاتها الفكرية ؛ إذ لم يكن — ولن يكون — صدام بين الحضارات ، بل تنافس شريف ، يتمثل فى تبادل الأفكار والرؤى على جميع المستويات ، فما كان صالحاً للأفراد والمجتمعات ، بقى واستمر ، وثبتت أقدامه ، وما كان طالحاً ذهب واندثر ، يقول الله تعالى : " .... فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ... " [الرعد : ١٧]

حوار الحضـارات

اهتم المفكرون منذ الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١م بقضية العلاقة بـين الشرق والغرب ، وبتعبير أدق بين الإسلام والآخر مشددين على أن الأسـلوب الأمثل للتفاهم بين الطرفين — المسلمين وغير المسلمين ، وخاصة الأوربيين ومـن لحق بهم من سكان أمريكا الشمالية — فى ظل تدهور الأحوال الإقليمية فى بـلاد المسلمين ، وذلك بغزو العراق وأفغانستان هو : **الحوار** ، وأكد هذا التوجه حدة التوتر فى فلسطين ، وتلويح القوى العظمى لبعض البلدان الإسـلامية فى منطقـة الشرق الأوسط بالعقاب الدولى ، الذى قد يصل إلى حـد اسـتعمال القـوة العسكرية ضدها .

تبلور هذا الاتجاه وتدثر بمصطلح فكرى هو : " **حوار الحضـارات** " ، وذلك ردًّا على نظرية صمويل هنتنجتون : **صدام الحضارات** ، التى روج لها فى التسعينات من القرن العشرين بنشر كتاب بهذا العنوان ، حيث بين فيه أنه بانتهاء الحرب الباردة بين الغرب الرأسمالى والشرق الشيوعى سوف يتشكل العالم نتيجة للتفاعل بين سبع أو ثمانى حضارات كبيرة ، منها الحضارة الإسلامية . وقد اعتبر هذه النظرية تهديداً للسلام ، معتمداً — على أساس فهم خاطئ — على دراسـته للعلاقات الثقافية والحضارية بين الأمم على مدى التاريخ ، ومفصحاً عما يكمن فى اللاوعى عند الغربيين من ضرورة وجود القطبية الثنائية فى العـالم ، ينـاطح كلاهما الآخر . فلما سقط العدو الشيوعى ، سوف يحل مكانه — هكذا تصـور هنتنجتون — عدو آخر للغرب ، وهو : **الإسلام** .

كتب الباحثون — وما زالوا يكتبون — كثيراً من المقالات والكتب حول هذا الموضوع ، وكثرت المؤتمرات ، وتعددت اللقاءات فى شكل ندوات ، سواء على المستوى الوطني ، أو الإقليمى ، أو العالمى ، وأحياناً وفود تجوب هنا وهناك ، تدير حواراً بين الأطراف المختلفة فى إطار ما يعرف بـ : **حوار الحضارات** ، مركزين على أن السلام العالمى لا يمكن أن يبنى إلا فى ظل **التسامح** ، **والتفاهم** ، كما أن مصير البشرية لا يتقرر إلا بالجميع ، ومعهم ، ولصالحهم جميعاً .

غير أن الاتجاهات الفكرية كانت — وما زالت — متعددة ، بل ومتضادة أحياناً ؛ فبينما يرى فريق أنه لا جدوى من الحوار فى ظل الوضع الدولى الحالى ، حيث تسود حالة صراع حضارى بين العالم الإسلامى والعالم الغربى ، ويشككون فى قدرة المتحاورين على الإسهام فى إدارة المعضلات السائدة بين الشرق والغرب ، مؤكدين على أنه لا يمكن أن يكون الحوار بين الحضارات مجدياً فى ظل غياب التكافؤ بين الأطراف المتحاورة ، فانعدام التوازن بين القوى يؤدى إلى وضع يملى فيه أحد الأطراف ما يحقق أطماعه ، ويحمى مصالحه ، وعلى الطرف الآخر الإذعان . والدليل على صحة هذا أننا نرى أن الغرب هو الذى يضع أجندة الحوار ، ويحدد قضاياه ، وهى غالباً ما تدور حول الحريات ، والحقوق الفردية ، وضرورة احترام التعددية . ويركز بصفة خاصة على ما يراه — أى الغرب — تفسيرات جامدة للشريعة الإسلامية ، وهى مسألة تهم الغرب ، ويضعها فى مركز الحوار ، مستهدفاً صياغة الشرق بالصورة التى يريدها تحت حجة معالجة — وتجفيف — جذور الإرهاب الذى يهدد — حسب زعمهم — الحضارة الغربية . فحوار الحضارات بالشكل الموجود الآن على الساحة الدولية ،

ما هو إلا واجهة للغرب يخفى وراءها صراع الحضارات ، وبالتالى فلن يثمـــر إلا بمقدار ما تريده الإدارات الرسمية فى صراعها مع القوى المخالفة لها .

أما الفريق الذى يرى أن الحوار مع الآخر ضرورة ، فيستند فى رأيه إلى أن العولمة حقيقة قائمة ، والواقع يحتم الاتصال بالآخر بكل الطرق الممكنة ، وعلـــى رأسها الحوار الفكرى تفادياً للصدام ، الذى يسعى إلى تأجيجه أناس ســـيطرت العنصرية على عقولهم ، فطفقوا يروجون لصدام الحضارات ، وتناطح الثقافـــات بغية تحقيق مصالح لهم ، وأملاً فى الوصول إلى التحكم والسيطرة على مقـــدرات الشعوب . ومن هنا يجب على الجميع أن يقبلوا بالحوار ، ويدعوا له ، حـــتى لا يضيع الوقت والجهد فى إحباطات وصراعات لن تجدى ، ولـــن توصـــلنا إلا إلى مزيد من الإحباطات ، وعديد من الهزائم على جميع المســـتويات ؟ سياســـية ، وعسكرية ، وثقافية ، واقتصادية .

ولكى يسير الحوار فى طريق سليم ، يؤدى إلى التفاهم بدلا من التراشق ، ويفضى إلى التسامح بدلا من التعصب ، فعلى الغربيين أن يغيروا من توجهاتهم فى السياسة الخارجية ، وأن يتخلوا عن أسلوب الازدواجية فى الحكم على الأشياء ، وفى التعامل مع القضايا الدولية ، وأن يسعوا إلى الإنصات لما يقوله المسلمون عن الإسلام ، حتى يفهموا الإسلام ، بعيداً عن الصورة السلبية التى كونوها عنه مـــن تصرفات بعض المغالين ، وهم قلة لا تمثل الإسلام ..... ويوجد مثلـــها فى كـــل الأديان ، وبين كل أمم الأرض ، فلا يجوز أن تُعَدّ هذه الصورة – التى رسمتها قلة أخفقت فى التعبير عن مبادئ الإسلام – تعبيراً عن المبادئ التى وردت فى القـــرآن الكريم ، يلتزم بها المسلمون أفراداً وجماعات .

أما المسلمون ، فعليهم أن يتخلوا عن الدور السلبى الذى يمارسونه علـــى صعيد المجتمع الدولى ، وأن يرتبوا مجتمعاتهم من الداخل ، كى تعبر عن الصـــورة

الإسلامية الصحيحة ، وأن يُعْنَوا بإعلامهم ، كي يرقى إلى درجة تعبر عن قيم الإسلام وتعاليمه تعبيراً صحيحاً .

لم تكن ظاهرة الحوار غائبة في المجتمعات الإسلامية منذ أمر الله رسوله ﷺ بالجهر بالدعوة ؛ فقد حاور ﷺ المشركين في قضايا كثيرة ، سجلها القرآن الكريم ، كما عقد لقاءات مع مختلف المجتمع العربي في الجزيرة العربية فيما يعرف بعام الوفود ، وكان من الوفود التي وفدت عليه في هذا العام وفد نصارى نجران ، فقد رُوِيَ أنهم دخلوا عليه في مسجده ، وبدءوا الصلاة فيه ، فأراد بعض الصحابة منعهم ، ولكن النبي ﷺ بسماحته قال للمانعين : **دعوهم** ، فصلوا في مسجده مطمئنين . ولما فرغوا من صلاتهم عُقِدَت بينه وبينهم جلسة حوار ، وجهوا فيها للنبي ﷺ كثيراً من الأسئلة ، فأجابهم النبي ﷺ عليها . وقد سجل القرآن الكريم بعضاً من هذه الأسئلة مع إجابة الرسول ﷺ عنها ، فمن بين أسئلتهم قولهم له : ما تقول في عيسى ، فإنا نصارى ، يسرنا إن كنت نبيًّا أن نعلم ما تقول فيه ، فتلا رسول الله ﷺ قوله تعالى : " **إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِّن الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ** " [آل عمران : ٥٩-٦١] ، وبعد انتهاء الحوار أعطاهم عهداً كان من مبادئه : " ..ولنجران جوار الله تعالى وذمة محمد النبي ﷺ وملتهم وأرضهم وأموالهم و غائبهم وشاهدهم ، وعشيرتهم وتبعهم ، وألا يغيروا مما كانوا عليه ، ولا يغير حق من حقوقهم ولا ملتهم ، ولا يغير أسقف من أسقفيته ، ولا راهب من رهبانيته ، وكل ما تحت أيديهم من مال ، وليس عليهم

ربية ، ولا دم جاهليته ، ولا يحشرون ، ولا يعشرون ، ولا يطأ أرضهم جيش ، ومن سأل منهم حقاً ، فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين ، ومن أكل ربا من ذى قبل فذمتى منه بريئة ، ولا يُؤخذ رجل منهم بظلم آخر ، وعلى ما فى هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله ، حتى يأتى الله بأمره ، ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مثقلين بحرب ." (١)

فهذه أول معاهدة فى التاريخ المعروف ، تعترف بدين الآخر وثقافته ، وتحترم تقاليده وعاداته ، فهى اعتراف صريح بتنوع الحضارات ، وتعدد الثقافات ، وهى نموذج للتعايش السلمى بين شعوب مختلفة فى عقائدها ، ومتنوعة ثقافاتها ، ومتعددة أساليب حياتها . نموذج حضارى برز فى عصور الظلمات ، ونبت من بين الحروب الدينية التى كانت سائدة آنذاك ، وتبلور فى مخضم الصراعات العرقية والثقافية ؛ فهى أكبر دليل على تقبل الإسلام للثقافات الأخرى ، والتعايش معها ، وخير مثال لدعوة الإسلام إلى إقرار السلم بين الأمم والشعوب ، مهما اختلفت أديانها ، وتعددت ثقافاتها ، وتباينت أساليب حياتها ، وتنوعت نظرتها وتصورها للكون والحياة .

يفتح الإسلام ذراعيه لكل الثقافات الأخرى ، مما يدل على سعة أفقه ، ونظرته العالمية الواسعة إلى الأديان والأجناس ، فأقام حضارة كبرى ساهم فيها أهل هذه الأجناس والأديان فى كل ناحية من نواحى الحياة : فى الفكر ، والفلسفة ، والأدب ، والفن ، والطب ، واللغة ، والتصوف . وكانت تلك الحضارة تأليفاً وتوحيداً ، لكل الحضارات قبلها : فى الصين ، والهند ، وفارس ، والروم ، واليونان .

---

(١) أبو زهرة : خاتم النبيين ﷺ جـ ٢ صـ ١٣٦٨ - ١٣٦٩

شيد المسلمون على كل هذه الأسس بناءً حضاريًا ضخماً ، اشترك فيه العلماء من جميع الأجناس والأديان ، فكانت بحق حضارة لجميع أهل الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاهم ، ثم انتقل هذا التراث الحضارى إلى الأجيال اللاحقة ، فكان مصدراً للحضارة الحديثة . وقد عبر أحد العلماء عن دور المسلمين فى بناء الحضارة الإنسانية بقوله : " إن المسلمين لم يحرصوا فقط على أن يكونوا ورثة الأنبياء ، بل ورثة الفلاسفة كذلك ."

فالإسلام دين حضارى ؛ لأنه لم يغرس فى نفوس المسلمين حقداً ضد أى طائفة أخرى من البشر تعتنق ديناً آخر ، ولم يُحَرِّم عليهم التزود بأى نوع من أنواع الثقافات الإنسانية ، ولم يفرض عليهم شيئاً يعزلهم عن غيرهم من أجناس البشرية ، ولم يأمرهم بإجبار أحد على اعتناق الإسلام ، فكان بذلك ساحة ضمت جميع الناس ، وبوتقة صهرت جميع الثقافات ، ووادياً أمِنَ فيه الناس على أنفسهم ، وعقائدهم ، وأفكارهم ، واطمأنوا فى ظله على سلامة أموالهم وممتلكاتهم ، فنظروا إليه غير خائفين ، وفكروا فى مبادئه غير وجلين ، ودرسوا أحكامه فى جوٍّ من الحرية والديمقراطية ، فجاء اعتناق من اتخذه ديناً عن رغبة واقتناع ، وعاش فى ظل دولته من بقى على دينه آمناً مطمئناً ، يسعى إلى رزقه ، ويشارك فى مجالات الدولة المختلفة تحت راية الإسلام التى ترفرف معلنة أنها مظلة الإنسان من حيث هو إنسان ، لا فرق وبينه وبين الآخر بسبب الدين ، أو اللون أو العرق ، فالكل أمام قوانين العدل ، ومبادئ الرحمة سواء .

إذا حدد العلماء معنى كلمة الحضارة بأنها : مجموع ما خلفته الأمة من آثار فكرية وفنية فى جميع المجالات المادية والمعنوية ، فإن الأمة الإسلامة قد تفوقت على كل الأمم السابقة واللاحقة فى هذه المجالات ؛ إذ أبدع المسلمون فى جميع نواحى الحياة ، وأسهموا بقسط وافر فى بناء حضارة إنسانية داخل إطار

أخلاقى غير مسبوق . ففى مجال التعليم الذى هو اللبنة الأولى والأساسية فى بناء أى حضارة ، أنشأ المسلمون المدارس ، والأكاديميات العلمية فى وقت نشر الجهل أجنحته فى جميع أرجاء الأرض ، فانتشرت المدارس الإسلامية منذ القرن العاشر الميلادى فى جميع مناطق الأقطار الإسلامية ، من الأندلس عبر إفريقيا حتى بلاد فارس ، وكانت المدارس العليا فى الأندلس منبعاً أمد الحياة الثقافية الأوربية بروافد حملت معها الخصوبة الفكرية التى هى أصل الحضارة الغربية .

وفى مجال الهندسة توصل العلماء المسلمون إلى رسم كتابة الأعداد ، فكانت أساساً للرسم الأوربى الحالى للأرقام الحسابية ، وظل الجدول الفلكى الذى وضعوه هو المرجع الوحيد لعلماء أوربا لعدة قرون .

وفى مجال الطب ، وصل المسلمون بفن العلاج إلى مستوى الكمال ، فأنشئوا أول مستشفى فى بغداد فى عهد الخليفة هارون الرشيد ، ثم ما لبث أن انتشرت مستشفيات مماثلة لها فى جميع أنحاء الدولة الإسلامية ، وكان أشهرها "بيمارستان" دمشق ، حيث توجه إليه الأطباء للحصول على الدرجات العلمية التخصصية ، كما أمه الطلاب للتدريب على ما يحتاجون إليه فى امتحاناتهم .

وكانت رعاية المرضى سبباً فى اكتشافات جديدة فى مجال الأدوية ، ذلك المجال الذى أصبح فى ذلك الوقت علم المسلمين الذى لا ينازعهم فيه أحد ؛ إذ اكتشفوا العديد من المستحضرات الطبية ، واستعملوا كثيراً من الأعشاب فى علاج المرضى ، فأثروا هذا المجال باختراعاتهم العديدة ، كما ظهر العديد من المراجع الطبية فى هذه الحقبة الزاهرة فى تاريخ الطب الإسلامى ، ثم انتقل هذا إلى أوربا فكان أسس علم الطب فى مدارسها العليا لعدة قرون .

يعترف كثير من علماء أوربا بذلك ؛ فقد قال "جوتشالك " فى كتابه " الإسلام قوة عالمية متحركة " : " أسهم الشرق الإسلامى منذ القرن الثامن

الميلادى فى الحضارة العالمية بانجازاته الضخمة فى مجالات المعرفة ، ولم يتوقف تأثيره عند قرن معين ، بل ظل يتقلب فى صور مختلفة عبر القرون حتى عصرنا الحالى ، إذ امتد التأثير الفكرى لهذه الحضارة — حتى بعد التدهور السياسى للدولة الإسلامية — فى جميع أنحاء العالم ، فأنتج فى مجالات عديدة لم تبحث جوانبها حتى الآن ..."

ثم يقول : " **لو لم يقم العرب بهذا الجهود الضخم فى مجال المعرفة ، لفقدنا كثيراً مما نتمتع به الآن فى عالم الثقافة من العلوم والمعارف ، أو لتأخر على الأقل انتفاعنا دهوراً طويلة ، فقد وصلت الحضارة الإسلامية إلى أوربا عن طريق أسبانيا ، فدفعتها إلى تطور ذاتى فيما بعد .** "

حتى فى مجال الفن كان للمسلمين بصمة واضحة ؛ فقد استلهم الفن الإسلامى أفكاره من الفنون السابقة له ، ولكن ما أخذه من هذه الفنون المختلفة أعاده فى شكل ، اتخذ طابعاً مختلفاً كل الاختلاف عن أى فن سبقه ، فقد عبر عن اتجاه إسلامى خالص ، وحمل بصمات الروح الإسلامية التى تخضع لإرادة الله ، الذى حدد فى اللوح المحفوظ مصير العالم ككل ، وقدر لكل كائن حى قدره على حدة ، فما يباشره من أعمال هى فى واقع الأمر منسوبة إلى الله .

وفى داخل هذا الإطار ، أنتج المسلمون فناً رائعاً ، يستطيع كل إنسان إدراكه فى المساجد ، حيث زينها الفنانون برسومات رائعة ، وزخرفوها بأشكال فى غاية الروعة والإتقان ، بهرت — وما زالت تبهر — كل من شاهدها حتى عصرنا الحالى . وإن دل ذلك على شيء ، فإنما يدل على ذوق وإحساس بالجمال ، يضاهى — إن لم يفق — ما ينسب إلى العالم المتحضر اليوم ، باعتباره من السمات الأساسية للتقدم فى المجتمع ، وازدهار حياة الفرد فيه .

أما فى مجال الصناعة ، فقد برع المسلمون فى العديد منها ؛ إذ بلغت صناعة النسيج الفاخرة عصرها الذهبى فى عهد الدولة الصفوية ، عندما طليت قصور أوربا بذلك النوع المرصع بالذهب والفضة من أصبهان ، وظلت تستورده منها ابتداءً من عام ١٥٠٢م على امتداد مائتين وخمسين عاماً .

كما احتلت صناعة السجاد على امتداد التاريخ الإسلامى مرتبة عالية ، وظل الشرق حتى اليوم أكبر مورد سجاد للعالم ، وكان السجاد التركى أوسعها انتشاراً فى العهد العثمانى ، ولا زال مطلوباً فى كل أنحاء العالم حتى اليوم بجانب الفارسى والقوقازى .

كذلك أنجزت البلاد الإسلامية فى مجال صناعة المعادن إنجازات رائعة ، كما كانت بلاد فارس وطن صناعة الكرستال والزجاج ، ثم انتشرت فى جميع البلاد الإسلامية ، كما ازدهر فن العاج فى الأندلس وصقلية ، ثم انتشر من هناك فعم جميع البلاد الإسلامية . ولا تنس صناعة الأخشاب ، ويكفى دليلا على هذا رؤية ما فى المساجد من أشكال هندسية رائعة للمنابر ، ومشاهدة ما فى القصور والمتاحف من شرفات وأبواب وشبابيك ، تكاد تنطق من فرط روعة أشكالها الهندسية ، ولا تسل عن الفن المعمارى الإسلامى ، فالمساجد والقصور تنبئك عن الكثير منها .

كان المسلمون متفوقين أيضاً فى مجال التجارة ، يشهد بذلك أحد الأوربيين فى معرض حديثه عن ازدهار التجارة فى العالم الإسلامى فى عصر لم يكن لها أثر يذكر فى أوربا ، فقد قال بالحرف الواحد : " بينما كانت الطبقات الحاكمة فى أوربا تنظر إلى التجارة نظرة ازدراء واحتقار ، سيطر العالم الإسلامى على شئون التجارة ، فأصبح التبادل التجارى محتكراً فى أيدى المملكة

الإسلامية ؛ إذ لم يكن بين أقطارها الشاسعة حواجز جمركية ، ولا حدود مانعة أمام تبادل البضائع اللازمة لضرورة الحياة ، فازدهر الاقتصاد فى ظل قواعد التجارة وشئون المواصلات التى بلغت حد المثالية ، لدرجة أن النشاط التجارى سار فى البر والبحر بأقصى سرعة دون هدوء أو توقف ، واستطاعت العقلية التجارية عند التجار المسلمين فى ذلك الوقت الحصول على أرباح طائلة .[1]

ومن هذا العرض يتبين أن المسلمين أنجزوا الكثير فى مجالات الحضارة الإنسانية بكل أنواعها وأشكالها ، ولذا ينبغى أن يكون معلوماً لدى الطرفين المتحاورين نديتهما ومساواتهما ، فإذا كان الطرف الغربى يعتقد أنه متفوق على الطرف الآخر بما وصل إليه من تقدم فى العصر الحديث ، فإن للطرف الإسلامى تاريخاً مجيداً فى هذا المجال ، ويتفوق على الغرب بأن حضارته لم تكن مادية بحتة — كما هو الحال فى الحضارة الغربية المعاصرة — ، بل كانت إنسانية ؛ تعنى بالإنسان ، وتحافظ على حقوقه ، وتغرس فيه الأخلاق التى تحميه من عبودية المادة ، وسيطرتها على سلوكياته ، وتحرره من طغيان الأنانية ، وشطحات التعصب للدين ، أو للعرق ، أو اللون ، فكل الناس سواسية ، فلا تعصب ، ولا تطاول من أحد على الآخر ، فالإنسانية مصانة ، ومقدسات كل الشعوب — على اختلاف أديانها — تحتل المكانة الأولى فى ظل الحضارة الإسلامية .

احترم الإسلام عقائد الآخرين ، على الرغم من الاختلاف الجذرى بينها وبين الإسلام ، بل إنه سماها أدياناً ، مما يوحى بالاشتراك بينها وبين الإسلام فى الخصائص المميزة لها عن التيارات الفلسفية ، فقال تعالى : " قُلْ يَا أَيُّهَا

[1] Vlg. Gottshalk : Weltbewegende Macht Islam 160 ff.

الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ " [الكافرون : ١ -٦] ، وهو ما يسمح لمعتنقيها بالجلوس على مائدة الحوار جنباً إلى جنب مع المسلمين يحاورونهم حواراً حضاريًا ، بعيداً عن السفه والتطاول ، ومترهاً عن الإسفاف فى لغة الحوار ، متجنبين احتقار الآخر أو الإساءة إلى مقدساته ، امتثالا لأمر الله فى قوله تعالى : " وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ" [الانعام : ١٠٨] ، فالنهى عن سباب مقدسات الآخر هو دعوة إلى حوار حضارى بالكلمة الطيبة ، والمجادلة بالتى هى أحسن ، وتبادل المعلومات فى جو يسوده الاحترام من الطرفين ، ومراعاة شعور الآخر ، بحيث لا يتطاول على مقدساته ، ولا يستهين بمبادئه ، ولا يستهزئ برموزه ، ولا يسخر من تعاليمه .

فالإساءة إلى الرسول ﷺ فى بعض الجرائد الغربية أسلوب غير حضارى ، بل هو رجوع بلغة الخطاب إلى ما كان سائداً فى عصور الظلام ، وممارسة لأخلاقيات تتنافى مع أبسط مبادئ الحضارة الإنسانية . ومن المبررات اللامعقولة ادعاؤهم بأن هذا يدخل فى باب حرية التعبير ، فقد ادعت الصحيفة الدنماركية التى نشرت صوراً مسيئة للرسول ﷺ أن ما قامت به حق مشروع ، يندرج تحت باب حرية التعبير السائدة فى العالم الغربى ؛ إذ أن قوانين هذا العالم تحمى هذه الحرية ، وعليه فليس من حق المسلمين الاعتراض على ذلك ، لأنه من المسلمات فى المجتمع الغربى .. بل وصل الأمر إلى حد رفض رئيس الوزراء الدنماركى مناشدة المسلمين له تقديم اعتذار عن هذه الإساءة زاعماً أن حرية التعبير حق كفله الدستور ، وأنه لا ولاية للحكومة على الصحافة ، بل الأكثر من هذا إمعاناً

واسترسالا فى مسلسل إهانة المسلمين إعلان البرلمان الأوربى – الواضح والشديد اللهجة — عن تضامنه مع الدنمارك وغيرها من الدول التى طالتها ردود المسلمين الغاضبة ، وشدد مكرراً على أن الدول التى شهدت أعمال عنف وتظاهرات ضد نشر الرسوم ، هى أمكنة تشهد فى شكل منتظم انتهاكا لحرية التعبير ، وهو قول ينطوى على عدة مغالطات ، منها : أنه لا توجد حرية مطلقة — وهو ما تعارف عليه المجتمع الدولى بكل أطيافه – ؛ إذ حريتك تنتهى حيث تبدأ حرية غيرك ؛ فلا يجوز نشر الخصوصيات باعتبار أن ذلك حرية ، ولا ينبغى الإساءة إلى المقدسات الدينية بحجة الحرية ، لأن المقدسات الدينية لا يجوز الاقتراب منها ، مهما كانت الدوافع والملابسات ، وهناك أسرار تحرم قوانين الدول نشرها ، حفاظاً على سلامة المجتمع ، وصوناً للأمن العام . كما أن ادعاء حكومة الدنمارك بأن ما نشرته الصحيفة هو من باب حرية التعبير ، وأنه لا ولاية للحكومة عليها ، وأنه لا يمكن بأى حال فرض وصاية على الإعلام ، يدحض كل هذا محاكمة المؤرخ "ديفيد إرفنج" ، فقد اقتيد إلى ساحة المحكمة بسبب ما قاله فى محاضرة ألقاها فى عام ١٩٨٩م : " إن هتلر قدم المساعدة ليهود أوربا ، وأن كل ما يتردد حول المحارق وأفران الغاز ليس سوى **خرافة** ." ، وحكم عليه بثلاث سنوات بتهمة التعبير عن رأيه فى أمر **غير مقدس** ، وهو محرقة اليهود فى أفران الغاز فى ألمانيا الهتلرية .

أين اختفت حماية حرية التعبير فى هذه المحاكمة ؟ ، ومن قبل حوكم "جارودى" لأنه شكك فى عدد ضحايا الهولوكست . **أين كان الدفاع عن حرية التعبير فى مسألة تاريخية ، من طبيعتها الاختلاف فيها ؟** ؛ فهى ليست

نصوصاً مقدسة ، وليس لها من الأدلة والبراهين ما يرفع درجة اليقين فيها إلى مرتبة المقدسات الدينية !

" لقد كان هذا المسلك الدنماركى خصوصاً والمسلك الأوربى الصحفى عموماً درساً من دروس الحماقة السياسية ! وإذا كنا من قبل — من باب النقد الذاتى — نقدنا الحماقة السياسية العربية باعتبارها تعبر عن حماقة المتخلفين ، إلا أننا لم ننس أن ننقد أيضاً حماقة المتقدمين التى ضربنا لها مثلا ، الحماقة السياسية الأمريكية فى غزوها العسكرى للعراق وفى استخدام الإرهاب للقضاء على الإرهاب .

وها نحن اليوم نواجه بحماقة سياسية صارخة أشعلتها الدنمارك وجرت وراءها الصحافة الفرنسية والألمانية والتى شاركت جميعاً فى استفزاز مشاعر الشعوب الإسلامية ، والتى أدت إلى مظاهرات حاشدة ، وإلى مقاطعة للمنتجات الدنماركية . وهكذا تحولت هذه الحادثة المنفردة التى كان يمكن احتواؤها لو حكمت كل من الصحيفة الدنماركية والحكومة الدنماركية العقل وقدمت الاعتذار المناسب فى الوقت المناسب . والواقع أننا الآن نشهد حالة نموذجية لما أطلق عليه صمويل هينتنجتون " صراع الحضارات " وإن كان من الأسلم أن نسميه " صراع الثقافات "

وإذا كانت الثقافة الأوربية قد قامت منذ قرون بثورة ثقافية ضد تعسف الكنيسة ، وأعلنت الفصل بين الدين والدولة ، إلا أننا فى مجال الثقافة العربية الإسلامية لا نعتبر أن السخرية من الأديان — أيًا كانت — أو ازدراؤها يعد من حرية التعبير ! بل إن تشريعاتنا الجنائية تعتبر هذا الازدراء جريمة يعاقب عليها القانون . ونحن نعتقد فى حكمة هذا الاتجاه ، لأن المساس بالعقائد الدينية التى يؤمن بها ملايين البشر مسألة بالغة الخطورة على الاستقرار الاجتماعى ، ومما

يساعد على بلورة هذا الاتجاه لدينا ، أن الإسلام يعترف بالأديان السماوية السابقة عليه ، ونعني اليهودية والمسيحية ، ولذلك يمكن القول أن التطرف الفكرى والحماقة السياسية قد اشتركا فى إشعال هذا الصراع الثقافى الحاد بين أوربا والعالم الإسلامى مما ينذر بعواقب كارثية اقتصادية وسياسية وثقافية على كل الأطراف ." [1]

إذا كانت هناك رغبة حقيقية وجادة عند من ينادون بالحوار الحضارى لتحقيق سلام عالمى بين كل الأمم والشعوب ، حتى تختفى الحروب الصغيرة والكبيرة ، فيجب على المتحاورين من الثقافات والحضارات المختلفة أن يراعوا حق الإنسان — أى إنسان على وجه الأرض — فى الحفاظ على إنسانيته التى كرمه الله بها ؛ فإهانة الأرواح والأعراض مرفوضة فى الإسلام بالنسبة للناس جميعاً ، فما بالك بالمقدسات ورموز الأمم الدينية ، ولا يمكن بأى حال من الأحوال أن تتضمن حرية التعبير سب الآخرين والاستهزاء بمبادئهم ورموزهم ، فإن ذلك يجرح شعورهم ، ويقيم سداً منيعاً بينهم وبين الحوار مع الآخر ، فالحوار البناء يقوم على وصل حبال الود ، والتداعى إلى كلمة سواء ، والتعاون على الخير ، والانطلاق من خندق واحد لمواجهة أخطار عديدة مشتركة ، تهدد الكيان الإنسانى كله على اختلاف عقائد أهله ، وألوانهم ، ومصالحهم القريبة ، فلا يؤتى الحوار ثماره إلا إذا كان قائماً على اعتراف جاد وأمين بالآخر ، فلا جدوى منه ، ولا فائدة فيه ، إذا كان بعض أطرافه يتعالون على سائر الأطراف ، أو إذا سمح أى طرف بإهانة الآخرين وسب رموزهم .

يرى المسلمون أن الحوار الحضارى فريضة ؛ لأن دعوة الإسلام عالمية ، لا تخص جنساً ، ولا لوناً ، ولا عرقاً ، ولا بلداً معيناً ، فالخطاب القرآنى يتوجه فى

---

[1] السيد يسين : تطرف فكرى وحماقة سياسية : الأهرام ٩ فبراير ٢٠٠٦

الكثير من آياته إلى البشر جميعاً ، مؤكداً على التعـايش السـلمى ، والإخـاء الإنسانى مستهدفاً خير وتقدم ونماء الإنسانية كلها .... هذا فضلا عن أن الدعوة إلى الحوار ، والالتقاء بالآخر ، ومجادلته بالتى هى أحسن دعوة قرآنية ، وتكليف شرعى قائم ، يقول الله تعالى : " **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضـاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ** .. " [آل عمران : ٦٤] ، ومن هنا يجـب أن نبـادر — نحـن المسلمين — بالدعوة إلى الحوار ، والإسهام فى مجالاته المختلفة ، وتنوعاته الفكرية المتعددة ، امتثالا لأمر الله تعالى فى كتابه العزيز : " **ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** " [النحل : ١٢٥] ، ولكى ينجح هذا الحوار ينبغى أن تسهم فيه جميع الدوائر والمؤسسات التى تعـنى بالفكر الإنسانى ، وكذلك التى تستهدف حفظ الأمن والسلم على المسـتويين : الإقليمى والدولى .

ينبغى أن يكون خطابنا فى مواجهة الآخرين خطاباً حضارياً متكاملا ، وفى مقدمة الخصائص التى تكسب الخطاب طابعاً حضارياً اتسـامه بالواقعيـة ، أى ارتباط الخطاب بحركة الواقع الراهن إسلاميًّا ودوليًّـا ، بإشـكالياته وقضـاياه وتحدياته ... وعلى ذلك يبدو ضروريًّا أن يمتلك الخطاب القـدرة علـى فهـم الواقع ، والتعرف على عناصره ، ومكوناته ، وقـواه المختلفـة ، وتطوراتـه ، ومتغيراته ، وتحولاته المتسرعة بأشكالها وصورها ، وميادينها المختلفـة ، والـتى تفرض أوضاعاً محلية ، وإقليمية ، ودولية جديدة تتطلب الحاجـة إلى إدراكهـا والتعامل معها ، وأن يعمل على صياغة تصورات ، ومفاهيم ، وحلول ملائمـة

تستجيب لمتطلبات واحتياجات النهوض بهذا الواقع ، انطلاقاً من المبادئ والقيم الإسلامية .[1]

إن تبادل المصالح هو الذى يحدث التوازن بين طرفى معادلة الحوار والتعاون ، ولا بد لحدوث هذا التوازن من وجود قوة وراءه ، والقوة الوحيدة للمسلمين فى الوقت الحاضر تتمثل فى التضامن ، وجمع الكلمة ، وتوحيد الصف ، وبذلك يكتسب الحوار حرارة وقوة ، ويصبح الحديث عن التعاون الثقافى حديثاً مؤدياً إلى الغاية ، محققاً للهدف . ولا يكون ذلك إلا إذا قامت بهذه الرسالة هيئة ، أو مؤسسة ، أو منظمة عربية — أو إسلامية — مشتركة ، أعضاؤها من ذوى الخبرة ، والتصور الصحيح ، والرؤية المستقبلية السليمة ، تدعمها الحكومات ، دون أن تملى عليها هذه الحكومات علاقاتها المتقلبة فيما بينها ، ولا علاقاتها الخارجية ، وعلى أن تترك لها حرية التحرك فى نطاق مصالح المسلمين ..... إذ من غير الطبيعى أن نستمر فى علاقات يواجهنا فيها غيرنا بمواقف موحدة ، أو متقاربة ، وبتصورات ، وخطط واضحة ، ونظل نحن متفرقين ، دون وضوح فى التصورات والخطط ، بل ربما كنا أحياناً نُقْبِل على الندوات والمؤتمرات دون إعداد كافٍ ، ودون أن نعرف ما نريد ، فتذهب مشاركتنا أدراج الرياح ، وحين يعود ممثلونا ، ووفودنا بشيء ذى قيمة — وما أقل ما يحدث ذلك — فإنه يضيع فى غياهب الأدراج . أما قيام هذه الهيئة أو المؤسسة المستقلة ، فإنها تضع الخطط والبرامج ، ثم تتولى التنسيق والمتابعة . وكل عمل ليس له متابعة هو عمل منقطع ، يضيع دون الوصول إلى غايته ، وما أكثر الأعمال التى تبدأ ، ثم لا تنتهى إلى شيء .

---

(1) الإسلام ومستقبل الحوار الحضارى ص ١٦ إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

يجب على المشاركين فى حوار الحضارات من الجانب الإسلامى ألا يشعروا بالنقص فى مواجهتهم لمن يملكون زمام الحضارة فى العصر الحديث ؛ فهم — المسلمون — أصحاب حضارة كبرى — كما بينا سابقاً — ، ملأت أسماع الدنيا ، وسيطرت على مجريات الأحداث فى العصور الماضية ، بل إنهم لا يزالون يملكون من العناصر الحضارية ، ما يؤهلهم للوقوف جنباً إلى جنب مع صناع الحضارة الحديثة ، فما زالوا يملكون جانباً كبيراً ومهماً فى البناء الحضارى ، ألا وهو الجانب الإنسانى : المبادئ الأخلاقية ، القيم الروحية ، أسس العدل ، المساواة بين البشر ؛ إذ لايفرقون بين الناس على أساس اللون ، أو الجنس ، أو العقيدة ، فالكل سواء فى خلفياتهم الثقافية ، وتعاليمهم الدينية ، أضف إلى ذلك أن أبوابهم مفتحة على الثقافات الأخرى ، يقبلون الصالح منها ، مهما كان مصدرها ، وعلى أى أسس ارتكز بنيانها ، ومن أى منبع انحدر تيارها . فقبول التنوع الثقافى والفكرى مبدأ من مبادئ الفكر الإسلامى ، والتعامل مع المخالفين — فكريًا — سمة واضحة فى الثقافة الإسلامية . فإذا كان الطرف الآخر يحس بالتفوق المادى والتكنولوجى ، فإن الجانب الإسلامى يملك زمام الجانب الآخر من الحضارة ، ألا وهو التفوق الروحى ، وقبول الثقافات الأخرى دون تعصب أو تحيز ، فضلا عن أن استعادة سيطرة العالم الإسلام على مجال التكنولوجيا الحديثة ليس مستحيلا ، فهذا أمر لا يحتاج إلى طبيعة عقلية خاصة ، بل يتطلب نوعاً من الخبرة وتوجيه الخبراء ، يقول المفكر الإنجليزى " هيلير بيلوك Hilere Belloc " : " لا يساورنى أدنى شك فى أن الحضارة التى ترتبط أجزاؤها برباط متين ، وتتماسك أطرافها تماسكاً قويًا ، وتحمل فى طياتها عقيدة مثل الإسلام ، لا ينتظرها مستقبل باهر فحسب ، بل ستكون أيضاً خطراً على أعدائه . من الممكن أن يعارض المرء هذا الرأى بأن الإسلام فقد سيطرته

على بعض الأشياء المادية....... فهو لم يلحق بالتقدم التكنولوجى الحديث . لا أستطيع أن أدرك : لماذا لم يعوض الشرق الإسلامى ما فاته فى هذا الميدان ...؟ فلا تحتاج علوم الهندسة الحديثة إلى طبيعة عقلية خاصة ، بل يتطلب الإلمام بها ، والتفوق فيها إلى الخبرة وتوجيه الخبراء . ومن الأمور المؤكدة أنه - غالباً — مايحدث أن تكون حضارة ، ذات منزلة عالية فى التقدم التكنولوجى، أقل درجة من حضارة أخرى ، لم يبلغ بعد تطورها فى هذا المجال ما بلغته الأولى . إذن فهناك احتمال كبير أن يصبح شعب - ظهر حتى الآن ، أن مواهبه فى الناحية التكنولوجية ضعيفة — فى المستقبل سيداً على شعب آخر استولت التكنولوجيا على حواسه ومشاعره — فلم ينقذه أحد - ، وتحكمت فى سلوكه النظريات ، التى تسلب الإنسان الإحساس بالطبيعة . لماذا لا يتعلم العالم الإسلامى ما تعلمناه فى مجال التكنولوجيا ؟ ... (فإن حدث هذا) فسوف يكون من الصعب علينا استعادة التعاليم الروحية — وهى من العوامل الأساسية لوحدة الشعوب - .... بينما لم يزل الإسلام يحافظ عليها ....." [1]

كما يجب على الآخر أن يقبل الحوار على أساس المساواة ، ولا تعالى ، ولا شعور بالأفضلية ، ولا استهداف إخضاع المسلمين لإرادته وتوجهاته ، ولا نية لفرض ثقافته ونظمه فى الحياة على المجتمع الإسلامى ، بل حوار متساوٍ بين الطرفين ، يستعد كل طرف فيه أن يسمع من الآخر ، ليعرف وجهة نظره ، دون الدخول فى المسائل العقدية ، التى لا يمكن التسليم به من طرف للآخر ، إلا إذا وصل إلى التنازل عن عقيدته واعتناق عقيدة الآخر ، أظن أن هذا لن يحدث — بأى حال من الأحوال — من الجانب الإسلامى .

---

[1] باول شمتز : الإسلام قوة الغد العالمية ، ترجمة : محمد شامة صـ ٣٣٣

كما ينبغى أن يتضمن الحوار المسائل التى يساعد التحاور فيها على إقـــرار السلم فى المجتمعات الإنسانية ، وتحقيق العدل بين الأمم والشـــعوب ، وحفـــظ الأمن والسلم بين دول العالم ، والعمل على تحقيق المساواة بين الناس على جميـــع المستويات الإقليمية والدولية . ومن المسلم به ألا يكون الحوار منحصـــراً بـــين الجدران ، بل ينبغى أن يبحث المتحاورون عن آليات نقله إلى العامة ، وتفعيـــل أهدافه على جميع الأصعدة : سياسية ، واجتماعية ، وثقافية ، واقتصـــادية ، وإلا أصبح الحوار عديم الفائدة ، إذ لن يخرج عن اجتماعات ، على شكل نـــدوات ، ولقاءات ، ومؤتمرات ، يصدر عنها قرارات ، لا يتعدى أثرها حيز الصـــفحات التى كتبت عليها ، ولا يكون لها صدى إلا بمقدار ما تضفى عليها وسائل الإعلام من هالات وصلصلات .

ومن نافلة القول إعلان العامة والخاصة أن المسلم — بتأثير مبادئ الإسلام فيه – يقبل الآخر ، ويتعامل معه بأسلوب حضارى ، ويحترم عقائده ، ويضـــمن أمنه وحمايته فى المجتمع الإسلامى ، ويأخذ من ثقافته وإنجازاته ما لا يتعارض مـــع المبادئ الإسلامية ، وتلك هى قمة ما وصلت إليه الحضارة الإنسانية فى الجانـــب الأخلاقى .

دور الدعوة الإسلامية

فى مواجهة التحديات الداخلية والخارجية

دور الدعوة الإسلامية فى مواجهة التحديات الداخلية والخارجية للعالم الإسلامى

منذ أن نزل القرآن الكريم على محمد ﷺ متضمناً أمره بالـــدعوة إلى الله ، والإسلام يواجه المعارضين والمناوئين ، غير أن أسلوب المعارضة اختلف باختلاف العصور والبيئات الثقافية والاجتماعية ، سواء فى المنهج ، أم فى الأفكـــار ، أم فى وسائل المواجهة . ومما لاشك فيه أن الدعوة الإسلامية فى العصر الحالى تواجـــه بأفكار وأساليب مختلفة عن كل العصور الماضية ، مما يحتم على القائمين بـــأمور الدعوة مراعاة ذلك ، سواء فى مجال تأهيل الدعاة ، أم فى منهج عرض الإسلام ، أم فى مواجهة التيارات الفكرية المختلفة على الساحة الثقافية ، أم فى التعامل مـــع المؤسسات الثقافية والإعلامية ، مع مراعاة شيوع الجهل بالتعاليم الإســـلامية فى أوساط المسلمين وغير المسلمين على اخـــتلاف درجـــة ثقافتـــهم وأوضـــاعهم الاجتماعية ، الأمر الذى ساعد على انتشار الخرافات فى المجتمعات الإســـلامية ، وشيوع الجهل بتعاليم الإسلام وقيمه بين غير المسلمين ، بالإضافة إلى عدم فهم العامة من المسلمين اختلاف المجتهدين فى استنباط الأحكام ، وعدم تصور هـــذا الخلاف لدى غير المسلمين مما جعلهم يتصورون أن هنـــاك تعـــدداً فى الإســـلام – إسلام أهل السنة ، وإسلام الشيعة ، وإسلام هذا أو ذاك من المناطق الجغرافية- كذلك أدت كثرة الجماعات التى تتحدث باسم الإسلام عن غير علم وبصيرة إلى إثارة البلبلة فى المجتمع الإسلامى ، وتكوين ضباب أمام أعين غير المسلمين ، ممـــا جعلهم لا يرون مبادئ الإسلام وتعاليمه بصورة صحيحة . ويمكـــن تلخـــيص التحديات الداخلية التى تواجه الدعوة الإسلامية فيما يلى :

١- انتشار الجهل بالتعاليم الصحيحة للإسلام مما ساعد على انتشار الخرافات والبدع .

٢- تيارات فكرية مناوئة للإسلام لا تتفق مع قطعى الدلالة من نصوص القرآن الكريم ، وما علم من الدين بالضرورة .

٣- الاتجاه العام فى وسائل الإعلام الذى لا يتفق فى مجمله مع مبادئ الإسلام وتعاليمه .

٤- عدم فهم العامة اختلاف وجهات النظر الاجتهادية — من أهل الاجتهاد — فى مجال الأحكام الشرعية .

٥- كثرة الجماعات والجمعيات التى تتحدث باسم الإسلام عن غير علم وبصيرة ، مما يثير البلبلة فى المجتمع الإسلامى .

وتتلخص أساليب المواجهة فيما يلى :

أولا : إعداد الدعاة إعداداً جيداً وذلك بـ : تطوير مناهج إعداد الدعاة فى الجامعات الإسلامية ، بحيث تشتمل على :

منهج الدعوة :[1]

ومفرداته :

١- مناهج الرسل فى الدعوة إلى الله [اختلاف المناهج بسبب التفاوت الثقافى، والبيئى ، والزمنى للمدعويين . تنوع الأدلة بسبب نوعية المدعويين ، وتعدد أساليب معارضتهم للدعوة .] .

---

[1] ذكرنا هذا الموضوع فى كتابنا : " لا .... لتطوير الخطاب الدينى " ، رأينا إعادة نشره هنا ، لأن المقام يقتضى ذلك .

٢- منهج القرآن الكريم :

أ- الحكمة [استخدام الأدلة العقلية مع غير المسلمين ، مع الاستشهاد بأحداث التاريخ ، ومناهج البحوث الاجتماعية والعلمية فى مجالات الكون والطبيعة والإنسان].

ب- الموعظة الحسنة [مخاطبة النفس والوجدان ، مع الاستعانة بنتـــائج علم النفس والأخلاق والاجتماع . شـــرح المبـــادئ والأحكـــام الإسلامية فى مجالات : العبادات ، والسلوك الإنسانى ، والنشاط فى تعمير الأرض ، وتحسين البيئة].

جـ- المجادلة بالتى هى أحسن [بالمناظرة مـــع المعانـــدين والمـــشككين بأسلوب عقلى مع الاستعانة بالفلسفة والمنطق وعلـــم الـــنفس... وغيرها مما يساعد على إقناع الخصم ... شرح كيفية مواجهة مـــن لايقتصر على المعارضة النظرية : كالجهاد بكل مامن شأنه الـــدفاع عن الإسلام ، والصمود أمام من يعتدى على المسلمين وحرمـــاتهم ومقدساتهم .]

ثانيا : الدعوة ووسائلها :

١- تعريف بالدعوة :

أ - المضمون : [العقيدة ، والشريعة ، والأخلاق]

ب - الهدف : [تبليغ شرع الله للناس].

جـ- الغاية من التبليغ : [إقناع غير المسلمين بالإسلام ،وتثقيف المسلمين بالأمور الشرعية ، وحثهم على تنفيذ أوامر الله واجتناب نواهيه]

٢- صورها : الكلمة المنطوقة ، ومن أهم أنواعها :

أ - الخطبة ، المحاضرة ، الدرس .

ب - الكلمة المكتوبة ، ومن أهم أنواعها : الكتاب ، المقال ، البحث ، القصة ، ويدرب الطالب على كيفية ممارسة هذه الأنواع .

٣- آلات وأماكن التبليغ : المسجد ، مؤسسات التعليم والتثقيف [المدرسة، الجامعة ، الأندية ، الجمعيات ، المراكز العلمية والاجتماعية والثقافية] الإذاعة ، التليفزيون ، شبكات الاتصال الحديثة . ويدرب الطالب على تنوع الأسلوب بحسب المكان ووسيلة الاتصال مع المدعوين.

ثالثا : السلوكيات :

١- سلوك الفرد : [النظافة والهيئة بشكل عام ، النظام ، الالتزام]

٢- وضع المجتمع : [التقدم فى جميع المجالات العلمية ، الحرص على تطبيق القيم الإنسانية : حرية الرأى والعقيدة ، حقوق الإنسان ، العدل ، المساواة ، التكافل الاجتماعى ، التعاون ، مساعدة الضعفاء ....الخ

رابعا : دراسة القضايا الفكرية المعاصرة التى لها صلة بالدعوة مع بيان أسباب ظهورها وتداعياتها ، وكيفية التعامل معها ، وأساليب مواجهتها، مثل : الأصولية ، التطرف ، الإرهاب ، التكفير والهجرة ، التعصب للرأى ، قبول الرأى الآخر ......الخ

خامسا : رفع مستوى الدعاة فى مجال المواجهة ، وذلك – :

- بتبصيرهم بحقيقة ما يوجه إلى الإسلام من تهم ، وكيفية الرد عليها .
- بيان أبعاد الهيمنة الثقافية المتخفية وراء العولمة ، وكيفية مواجهتها والتعامل معها .
- توضيح العلاقة بين العلم – وما ينتجه من نظريات ومستحدثات – وبين الدين .
- إلقاء الضوء على العلاقة بين النص والعقل ، وموقف الإسلام من الحضارة، مادية كانت أم معنوية .
- رفض تفسير تعاليم الإسلام طبقا لهوى المناوئين للإسلام ومصالحهم .
- التركيز فى الدعوة على : السماحة ، التيسير ، احترام الآخر ، تقديم الأهم على المهم ، تقديم الأصول على الفروع ، البعد عن الخرافات ، عدم الانفصال عن الواقع ....الخ

وعلى الأقسام العلمية توزيع هذا البرنامج على سنوات الدراسة فى المرحلة الجامعية ، مع إضافة التفصيلات والتفريعات إن لزم الأمر .

نوعية الدعاة :

التدقيق فى اختيار الطلاب الذين سيؤهلون للقيام بالدعوة ، وذلك باختيار الممتازين دراسياً ، والذين يتمتعون بالخلق الطيب ، والهيئة الحسنة المؤثرة فى نفوس المدعوِّين ، والموهبة فى الصوت ، والذكاء ، وحسن التصرف فى المواجهة مع الجماهير .

ويمكن جذب من يتمتع بهذه الصفات إلى الدراسة فى الكليات المتخصصة عن طريق رصد مساعدات مالية لمن يدرس فى الكليات المتخصصة فى إعداد الدعاة ، أو تسكينهم وإعاشتهم من صناديق خاصة ، تُمَوَّل من أموال الزكاة ، أو من تبرعات ، يعلن عنها للمسلمين : أنها تخصص لإعداد الدعاة .

تدريس مادة الثقافة الإسلامية لجميع طلاب الجامعات فى البلاد الإسلامية ، بحيث يراعى فى وضع منهجها مايلى : [1]

١- تنمية الروح الدينية عند الطالب ، سواء كان من جانب الاعتقاد بخالق للكون، أو من ناحية أن الدين — وخاصة الدين الإسلامى — يحث على البحث فى الكون ، واستكشاف أسراره ، وتسخير ما فيه لصالح الحياة الإنسانية .

٢- تقويم السلوك ، وذلك بالنص فى المنهج على القيم والمبادئ التى تدعو الإنسان إلى التحلى بالأخلاق الحميدة ، والالتزام بكل ما يحقق للإنسان سلاما وأمنا واطمئنانا .

٣- من أهم ما يحتوى عليه منهج الدراسة للثقافة الإسلامية أن يقوم على أساس القرآن الكريم ، وعلى ما أجمعت الأمة على صحته من السنة النبوية الشريفة ، مبتعدا عن الخلافات المذهبية أو البيئية ، أى التى ارتبطت بأحداث وقعت فى العصور السابقة ، ولم يعد لها وجود الآن ، فالمنهج السليم لا بد أن يقوم على المبادئ الأساسية فى الإسلام ، مع مراعاة

---

[1] انظر كتابنا : لا ..لتطوير الخطاب الديني.

مناقشة مشاكل العصر وطرح حلول دينية لها ، تناسب ظروف البيئـــة ، مع الالتزام بوضعها فى إطار الممكن بالنسبة لجمهور المسلمين .

٤- التركيز على أن اختلاف العلماء فى الأحكام الدينية أمر طبيعى ، ينبغى أن يتقبله المسلم بارتياح ، لأن فلسفة الحياة تقوم على هذه الظـــاهرة ، ولأن ذلك من طبيعة الإسلام من ناحية كونه دينا عالميا لكل البـــشر فى كـــل أقطار الأرض . ومما لا شك فيه أن ظروف الحياة على هذه الكرة الأرضية متباينة ، بل ومتباعدة أحيانا ، فكان لابد أن يكـــون هنـــاك فى مـــسائل التشريع الحياتية - والعبادية أحياناً - تنوع ، حتى تتاح الفرصة ليطبق كل مجتمع ما يلائم ظروف حياته الزمانية والمكانية . فإذا فهم الطالب ذلـــك خفت حدة التعصب ، وتوارى التطرف ، وبذلك تختفـــى الـــصراعات المذهبية ، ويتوارى العنف الطائفى، فيطمئن الفـــرد ، وتنـــتظم نغمـــات الحياة ، ويعم الأمن والاطمئنان فى المجتمع .

٥- ومن العناصر المهمة — إن لم يكن أهمها — فى مقرر الثقافة الإســـلامية : الاعتراف بالآخر ، وأقصد به : احترام عقيدة الآخرين وشريعتهم ، حـــتى ولو كانوا كفارا ووثنيين ، لأن ذلك منصوص عليه فى القرآن الكـــريم فى قوله تعالى : " **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** " [الكافرون : ٦] . فمن بـــاب أولى أصحاب الرسالات السماوية ، كاليهود والنصارى ، الذين سماهم القرآن الكريم : أهل الكتاب ؛ لأن من أركان الإسلام الأساسية : الاعتراف بمن أرسله الله قبل محمد ﷺ ، كما جاء فى قوله تعالى : **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَـــا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ...** " [البقرة : ٢٨٥]. فالإيمـــان الـــصحيح ، والإسلام المقبول هو الذى يتضمن الاعتراف برســـالة موســـى وعيـــسى

عليهما السلام ، فإذا استقر ذلك فى وعى الطالب نظر إلى أتباع هــذين الرسولين — وإن اختلف فهمهم لما أُنزِل عليهما مع ما أخبر بــه القــرآن الكريم — بأنهم إخــوان له فى العقيدة ؛ إذ يجمعهم قاســم مــشترك، ألا وهو : أن رسالتهم سماوية ، فهى من المنبع الذى نزل منه القرآن الكريم ، والجميع يتوجهون بالعبادة إلى إله واحد ، وإن اختلفت تــصوراتهم لــه ، وتباينت طرق التوجه إليه . وبذلك تسود روح الأخوة بينهم ، ويــساند بعضهم بعضاً فى نشر المبادئ المشتركة ، ومواجهة العدو المــشترك ، ألا وهو : الماديون الملحدون، الذين يناصبون الدين العداء ؛ فهــم ينــشرون الرذيلة فى المجتمع ، ويغرسون روح العداوة والبغضاء بــين الــشعوب ، ليدمروا العالم ، فأولى بنا أن نبنى مقرراتنا الدراسية على التسامح والود مع أبناء الأديان السماوية ، لإعداد شباب يضع يده مع أيدى شــباب هــذه الأديان ليواجهوا سوياً هذه الفوضى العارمة التى يبثها أعداء الأديــان فى المجتمع ، وبذلك نبنى بيئة حياتنا على أساس سليم ، ونُــؤَمِّن مــستقبلنا بسياج يستعصى على الاختراق ، لنصد كيد من يريد للمجتــع ســوءاً أويضمر له حقداً .

٦- بيان أن الإسلام ليس صلاة وصياما فقط ، وإنما هو دين يحث على العمل الدنيوى لإعمار الأرض ، جنبا إلى جنب مع أداء العبادات المفروضة ، بل إنه يعتبر إعمار الأرض عبادة لله ، ويفضل طلب العلم علــى الاعتكــاف بالمساجد يقول رسول الله ﷺ : " .... **وإن فضل العــالم علــى العابــد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب** .... "[1]، كذلك يفضل نشر العلم على تأدية النوافل من صلاة وصيام ، فقد سئل رسول الله ﷺ

[1] أبو داود : العلم ، باب ١ ، رقم ٣٦٤١

عن رجلين فى بنى إسرائيل ، أحدهما كان عالما يصلى المكتوبة ، ثم يجلس فيعلم الناس الخير ، والآخر يصوم النهار ويقوم الليل ، أيهما أفضل ؟ ، قال رسول الله ﷺ : " **فضل هذا العالم الذى يصلى المكتوبة ، ثم يجلس فيعلم الناس الخير ، على العابد الذى يصوم النهار ويقوم الليل ، كفضلى على أدناكم رجلا** "[1] . وعليه فينبغى أن يحتوى مقرر الثقافة الإسلامية على هذا المعنى ، كى لا يستغرق الشباب فى العبادة مهملاً واجبه إزاء أمته ، ذلك الواجب الذى يحتم عليه دينياً أن يبذل قصارى جهده فى سبيل التنمية ، حتى تستطيع الأمة الإسلامية أن تحتل موقعاً ملائماً فى سلم الحضارة الإنسانية ، ففى القرآن الكريم آيات كثيرة تحث على النظر والبحث فى الكون والطبيعة والإنسان وغيره من الكائنات الحية . يجب أن يعرف الطالب هذه الآيات ويفهمها فى دراسته لمقرر الثقافة الإسلامية، كى يدرك أن الإسلام دين ودنيا ، عبادة وعمل ، روحانية ومادية .

٧- لا ينبغى أن يقوم منهج الثقافة الإسلامية على حفظ آيات من القرآن الكريم ، وتلقين أحاديث من السنة النبوية فقط ، بل ينبغى أن يكون له من المقومات ما يساعد الطالب على فهم روح الإسلام ، واستكشاف أسلوب معاملته فى تقويم الإنسان ، ذلك الأسلوب الذى من أهم معالمه : التيسير ، لا التشدد ، تنفيذاً لأمر رسول الله ﷺ فيما روى عنه أنه قال : " **يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا** "[2] ، كما أن من أهم معالمه أن الأصل فى الأحكام الإباحة ، ما لم يرد نص قطعى الدلالة

---

[1] الدارمى : المقدمة ، باب ٣٢ ، رقم ٣٤٩

[2] البخارى : العلم ، باب ١١ ، رقم ٦٩

بتحريمه ، أما ما يحتمل أكثر من وجه ، فروح التعاليم الإسلامية تقضى أن يأخذ المسلم من هذه الآراء ما يسهل له سبل الحياة ، ويتلاءم مع ظروفه ومتطلبات عصره فقد روى عن عائشة أنها قالت : **" ما خُيِّرَ رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ، ما لم يكن إثماً ، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه"** [1]

٨- بيان أن التراث الفكرى للمسلمين لا يقبل كله ؛ لأن ذلك يوقعنا فى تناقض ، لأن فيه من الآراء ما يناقض بعضه بعضاً ، ولذا ينبغى أن ننقيه ، فنقبل منه ما وافق القرآن الكريم — وكذلك السنة العملية وما تواتر من الحديث الشريف – فإن لم يكن له مثيل فى القرآن ، احتكمنا إلى العقل ، فنقبل ما يقره العقل ، ونرفض ما يرفضه ، وبذلك ننقى التراث من الخرافات والأساطير التى ليس لها أصل فى القرآن الكريم ، فننقذ الشباب من الأوهام التى عطلت قدراته العقلية ، ونحميه من التصورات الهلامية التى أعجزته عن اللحاق بركب الحضارة الحديثة .

٩- غرس المبادئ والقيم الاجتماعية والإنسانية فى نفس الطالب ، مثل الصدق، والأمانة ، والالتزام ، والشرف ، وحقوق الجار ، وبر الوالدين، وغيرها من الأخلاق التى تميز الهوية العربية والإسلامية عن غيرها ، وكذلك العدل ، والسلام ، والأخوة الإنسانية ، وكيفية التعامل مع الشعوب ، والأعراق ، والجنسيات الأخرى .

١٠- ينبغى أن يشتمل منهج الثقافة الدينية على تعويد الطالب على السلوك الحضارى ، مثل : النظافة ، والنظام ، والمحافظة على البيئة ، واحترام المواعيد، وتنمية التذوق الجمالى عنده والحرص عليه ، سواء فيما يتعلق به

---

[1] البخارى : المناقب ، باب ٢٣ ، رقم ٣٥٦٠

شخصياً ، أو يرتبط بما يحيط به مما يتخذه فى شئون الحياة العامة ، كذلك الالتزام بما تعارف عليه المجتمع من تقاليد وعادات ، وتجنب ما يستقبحه المجتمع ، وينبذه من سلبيات . وبذلك ينسجم سلوكه مع الذوق العام ، ويلتحم أسلوب حياته مع عادات أمته وتقاليدها .

ومما لاشك فيه أنه إذا روعى فى وضع منهج الثقافة الدينية لطالب الجامعة ما بيناه سابقاً ، فسوف نُخَرِّج طالباً سوياً فى تفكيره ، ينظر إلى ما يحيط به من تيارات فكرية نظرة فاحصة ، ينتقى منها ما يعود عليه بالنفع والاطمئنان ، ويرفض ما فيه ضرر له ولأمته ، الأمر الذى لا يحتاج معه إلى وصاية فكرية ، أيًّا كان نوع هذه الوصاية ، فهو قد حُصِّن بالمبادئ الدينية التى تغذى الجانب الروحى عنده ، تلك المبادئ التى لا تفصله عن متطلبات عصره ؛ فهى تدعوه إلى استعمال العقل ، والنظر إلى اختلاف الآراء وتعددها بارتياح ، فلا يتزعج من كثرتها ، ولا يعتريه القلق من غلو بعضها ، وإهمال البعض الآخر للمبادئ والقيم ، لأنه تعلم فى مدرج الدراسة أن هذا هو طبيعة الفكر الإنسانى ، وتلك هى فلسفة الحياة فى المجتمعات الإنسانية ، فعليه – بتكوينه الفكرى على منهج من هذا النوع – أن يناقش كل ماهو مطروح على الساحة بنفسه ، وأن يرد بالأدلة الواضحة والحجج والبراهين الساطعة ما يراه منحرفاً ، وأن يؤيد مايراه تدعيماً لهويته ، وتمكيناً لثقافته ، وترسيخاً لتقاليد وعادات أمته .

لماذا الثقافة الإسلامية ؟

إن هوية الأمة — أى أمة — تقوم على ثقافتها ، ووجودها يرتكز على دينها وعقيدتها ، فكلما حافظ الأفراد على ثقافتهم ، وتمسكوا بها ، وحموها من

الذوبان فى الثقافات الأجنبية ، برزت هويتهم ، وتميز كيانهم بين الثقافات ، وثبتت أقدام أمتهم بين ركب الأمم ، وتسامت هاماتهم فى خضم الأمواج العالية على الساحة الدولية .

كذلك الأمر فيما يتعلق بدينها وعقيدتها ؛ فالدين أساس الوجود ، ومرتكز الحياة ، فلا توجد أمة بدون دين ، ولا يبرز كيان المجتمع إلا بالدين والعقيدة ، فهوية الأمة الإسلامية دينها ، ووجودها مرتبط بالعقيدة : سلوكاً ، وأخلاقاً ، وحضارة . ولا تتحقق لها حياة كريمة إلا إذا تربى أبناؤها على تعاليم الإسلام ، فدرسوا أسس العقيدة وتدربوا على مواجهة ما يوجه إليها من افتراءات ، خاصة فى عصرنا الحاضر ، حيث تتسارع الأحداث ، وتتدفق المعلومات من كل حدب وصوب مؤثرة فى صياغة الحياة فى المجتمعات الإسلامية ، فلو لم يتسلح الشباب للتعامل معها تهتز عندهم المسلمات ، ويتشابك فى ثقافتهم الغث مع السمين ، فيتسرب الشك إلى عقولهم ، لهذا كان من الواجب علينا عقدياً أن تشتمل مناهج التدريس فى الجامعات الإسلامية على مادة الثقافة الإسلامية ، لكى نحمى شبابنا من التيارات الهدامة ، ونصون عقيدتهم من التلوث الفكرى — أو من العنف والتطرف — المنتشر على الساحة الفكرية فى طول الكرة الأرضية وعرضها ، حتى يكونوا قادرين على المواجهة فى كل زمان ومكان .

وخير دليل على أهمية تدريس مادة : الثقافة الإسلامية فى الجامعات الإسلامية مانراه اليوم فى المجتمع من شعور الشباب بأنهم ضائعون ، لا يعرفون لهم هوية يرتكزون عليها ، ولا يشعرون بكيان يجمعهم فى نسق واحد ؛ فهم مشتتون بين الثقافات المختلفة ، وحائرون فى دهاليز مظلمة لا يظهر لهم فيها طريق يقودهم إلى مستقبل يحقق لهم أحلامهم وآمالهم ، أو يشبع رغباتهم المشروعة ،

فعيونهم على الهجرة إلى خارج الوطن ، وآمالهم معلقة على اللحـــاق بـــالغير ، تاركين أوطانهم خالية من عقول تحميها وسواعد تبنيها ، وعزائم تصر على دفعها إلى الأمام لتتخذ مكانها بين الأوطان . فمعظم شباب اليوم لا يرى له مستقبلاً فى بلده ، بل فى أماكن أخرى بعيدة عن الوطن الذى رباه ورعاه فكرياً وثقافيـــاً ، فضلا عن تنميته جسمانياً وحمايته اجتماعياً ونفسياً ، فهو يحيا فى وطنه غريبـــا ، لأنه لم يتلق من الثقافة الدينية ما يشعره بهويته ، ويغرس فيه حب وطنه وأهله ، ولم يتعلم من القيم والمبادئ الدينية ما يحميه من الحيرة التى أصيب بها عندما تلقى من السماوات المفتوحة تيارات ثقافية متعددة الألوان والأشـــكال ، تـــدعوه إلى التخلى عن هويته وثقافته ، وتقليد ما تعرضه عليه من أساليب الحياة وطرقهـــا . ولكثرة هذه النماذج المعروضة عليه ، وعدم حمايته بالثقافة الدينية ، فقد صاغ بنفسه نموذجا لحياته لا يعرف له هوية ، ولا تنسجم عناصره فى إطار محدد ، فهو خليط من النماذج والصور العالمية المتعددة الاتجاهات والفلسفات . وليته اختـــار منها العناصر الإيجابية التى تساعده على رقى حياته وتقدمها ، بل كان معظم مـــا اختاره هو من نفايات الصور الحضارية فى العالم المتقدم .

لن يخرج شبابنا من حالة الضياع التى وصل إليها إلا إذا أدرك هويته عـــن طريق دراسة مادة الثقافة الدينية فى المرحلة الجامعية ، بشرط أن يضع منـــهجها علماء بارزون فى العلوم الدينية ، ومدركون لمعطيات العصر ، وقـــادرون علـــى مراعاة النقاط العشر السالفة الذكر عند وضعهم لهذا المنهج ، بالإضافة إلى إعداد كوادر التدريس إعداداً يؤهلهم لفهم طبيعة الفكر الإسلامى ، مـــن حيـــث : التعددية ، والسماحة ، والاعتراف بالرأى الآخر ، وحرية المسلم فى اختيار مـــا يناسبه من الآراء ، وعدم استعمال القوة لفرض رأى معين .

فهذه هى القواعد الأساسية فى دراسة الثقافة الدينية ، التى تسهم فى تكوين عقلية الشباب ، حتى يدرك هويته ، ويتمسك بها ، ويعرف مكان أمته بين الأمم ويعتز بها ، ويدافع عنها .... بل يتفانى فى سبيل رقيها وتقدمها ، ويحرص فى عمله على الإسهام بأقصى ما يمكنه فى بناء أمته ، لتحتل المكان اللائق بها بين الأمم .

رابعاً : تطوير أداء المسجد :

لاينبغى أن يقتصر المسجد على أن يكون مكاناً لأداء الصلاة فقط، بل يجب أن يكون مركز إشعاع ثقافى ، ومنبع خدمات للمسلمين ؛ وذلك بأن يضم قاعة لتحفيظ أطفال المسلمين القرآن الكريم ، وتلقينهم مبادئ الأخلاق الإسلامية حتى يتعودوا عليها من صغرهم ، وليكن ذلك فى الفترة المسائية ، حتى لا يتعارض ذلك مع ذهابهم إلى المدرسة صباحاً ، على أن يقوم إمام المسجد ومقيم الشعائر بهذا المهمة لقاء أجر إضافى يتقاضاه من صندوق النذور والصدقات الذى يوضع فى المسجد لهذه المهمة ، ولا يُحَمَّل أولياء الأمور أية أعباء مالية ، تشجيعاً لهم على إرسال أبنائهم إلى المسجد ، ليتعودوا منذ نشأتهم على التمسك بتعاليم الإسلام ، إذ أن من نافلة القول أن ما يغرس فى الصغر ، يؤثر تأثيراً كبيراً فى تكوين شخصية المسلم ، ويساعد مساعدة فعالة على تحصين الشباب ضد الأفكار المتطرفة ، والمذاهب الهدامة التى تحاصرهم من كل جانب . كذلك ينبغى أن يُلْحَق بالمسجد مستوصف لعلاج المرضى بأجر رمزى، يُدْعَم من صندوق النذور ، ومن تبرعات أهل الخير . ولا يقتصر العلاج على الأمراض ، بل يعين فيه أخصائى اجتماعى ، يساعد المسلمين على حل مشاكلهم المادية

والاجتماعية ، وبذلك يكون المسجد مركزاً متكاملا ، يجد فيه المسلم كل ما يحتاج إليه من المساعدات الروحية والمادية والاجتماعية ، فيشعر بأن هناك رباطاً قوياً يربطه بالإسلام ، فهو ليس وحيداً ، يُخشَى عليه من افتراس التيارات الفكرية ، مهما كانت شدتها ، وعلى أى وضع كان بريقها.

خامساً : تنظيم وتقنين ممارسة الدعوة :

لاشك أن الدعوة الإسلامية واجبة على كل مسلم ومسلمة ، ولكن فى حدود الإمكانات الشخصية لكل فرد ، وإلا كان لنشاطه فى الدعوة آثاراً سلبية ، وهو ما يحدث الآن على الساحة الإقليمية والدولية ، إذ تدفع العاطفة الدينية بعض المسلمين إلى الخوض فى المسائل الدينية ، وكثيراً ما يفتى غير المتخصصين فى أدق المسائل ويجزم برأى فيما اختلف فيه الفقهاء ، مما يكون له تأثير سيِّء على سلوك الناس واتصالهم بالجانب الدينى . ومن معالم هذه الظاهرة ما نراه ونسمعه من شباب لا صلة لهم بالدراسات الدينية ، إذ ينشرون من الآراء والتعاليم باسم الإسلام ما هو بعيد عن روح الإسلام وتعاليمه ، فهم يظنون أنهم يؤدون بذلك خدمة للدعوة الإسلامية ، وفى حقيقة الأمر يصورون الإسلام بصورة تنفر كثيراً من المجتمعات والأفراد من الدين ، مما يجعل سلوكهم وسيلة للتنفير من الإسلام ، لا أسلوباً للدعوة إلى الله ، وما ذاك إلا لأنهم عاجزون عن فهم حقائق الدين وفقهه . ولذا ينبغى عدم السماح لهم بالخوض فى تفسير النصوص الدينية ، لأن ما يترتب على خوضهم فيما لا علم لهم به من فساد لا يتناسب مع ما يحدثونه من تأثير روحى فى المجتمع ، فهم يفسدون أكثر مما يصلحون .

وعليه فليس هناك من يجوز له ممارسة الوعظ والإرشاد إلا المؤهل علمياً لهذه المهمة ، ومن هنا يمكن أن يفهم المرء ما اشترطه بعض الفقهاء فيمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، مِنْ أن يأذن له الإمام بذلك ، فقد استندوا فى هذا إلى أن الإمام يستطيع اختيار من يحسن القيام بهذه الوظيفة ، ويقصدون بذلك أنه سوف يعهد بهذا الأمر إلى المؤهل علمياً ، حتى لا يحدث ما يؤدى إلى الفساد والفتن بدخول غير المؤهلين إلى هذا الميدان ، لأنهم سوف يشيعون — بجهلهم الأحكام — البلبلة بين الناس ، ويبذرون بذور الحيرة فى قلوبهم بتضارب أقوالهم تضارباً لا يستند إلى دليل ، ولا توجهه حكمة ، أو توضحه مصلحة حياتية أو عقدية .

فإطلاق حرية الحديث لكل الناس فى المجال الدينى له عواقب سيئة فى حقل الدعوة إلى الله ، فهو وإن كانت له آثار طيبة من بعض النواحى فى المجتمع ، إلا أن ما ينتج عنه من غيوم تحجب سماحة الإسلام ، وتخفى عن أنظار غير المسلمين — وكثير من المسلمين أيضاً — فاعليته فى مجالات العلوم الحديثة ، وإمكانات إسهام من يتمسك به فى بناء الحضارة المعاصرة بجميع فروعها ، مما يثقل كاهل الدعاة فى مواجهة التيارات الفكرية المعادية للإسلام .

ولكن

من يحق له أن يتحدث باسم الإسلام؟

ينفرد الإسلام عن غيره من الأديان بأنه لا يقر الطبقية، فالناس فى المجتمع الإسلامى سواسية فى الحقوق والواجبات ، لا فضل لعربى على عجمى ، ولا

لأبيض على أحمر إلا بالتقوى ، ولا يملك أحد من البشر مقياساً للتقوى ؛ لأنها من الأمور التي لا يطلع عليها أحد إلا الله ﷻ ، غير أن الحياة لا تسير إلا إذا وُضِعَ كلٌّ في موضعه طبقاً لإمكاناته وتخصصاته ، فلا يمارس المهندس مهنة الطبيب ، ولا يتصدى الطبيب للشئون الهندسية ، أى أنه لا يقوم أحد بعمل إلا إذا كان قد أتقن– عن طريق التعليم والتدريب – قواعده ، وألَمَّ بكل جزئياته ، وأحاط بالمعرفة اللازمة لممارسة هذا العمل ، وصدق الله إذ يقول: " **وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**..... " [الإسراء : ٣٦]

فخوض الإنسان فيما لا يتقنه إهدار للتخصصات ، وضياع للجهد والمال ، وتخريب لمنظومة الحياة، وبالتالى فهو يودى إلى التخبط والبلبلة ، وفقدان الثقة فى مصادر الإنتاج والمعرفة ؛ لأن كُلاًّ يعرف كل شيء ، فإذا بحثت عن الحقيقة ، فهيهات أن تصل إليها ، لأنك لا تستطيع أن تفرق بين من يعرفها حقاً ، وبين من يدعى أنه يعرفها .

ومن هنا فقد حذر الإسلام من ادعاء المعرفة ، ونهى عن الخوض فيما هو مجهول ؛ فلا يجوز لأحد – إسلامياً – أن يتصدى لعمل شيء ما ، إلا إذا كان متأكداً من الإلمام به ، وقادراً على تأديته على أكمل وجه ، يقول رسول الله ﷺ: " **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت** "[١] ، ولا يستطيع أحد التفريق بين ما هو خير وما هو شر ، إلا إذا كان عالماً بالموضوع ، ومُلِماً به ، ومتمكناً من كل ما يتعلق به ، بالقدر الذى يؤهله لإتقان ما يقوم به، يقول رسول الله ﷺ : " **إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه** ."[٢]

---

[1] البخارى جـ ٥ : رقم ٥٧٨٥ ، مسند أحمد جـ ٥ رقم ٥٦٧٣ ، وكذا فى مسلم ، وأبى داوود ، والترمذى ، والموطأ .

[2] مسند أبى يعلى جـ ٧ صـ ٣٤٩ رقم ٤٣٨٦ ، والمعجم الأوسط جـ ١ صـ ٢٧٥ رقم ٨٩٧

فإذا ساد هذا المعنى فى المجتمع ، انتظمت خطواته ، وتلاقت أنشطته المختلفة فى منظومته ، يكمل بعضها بعضا ، فتتلاقح فى نغمات متناسقة ، أو تتدافع فى إطار تنافسى للوصول إلى الأصلح ، فيأخذ مكانه فى مسيرة التقدم ، ويتفاعل مع مثيله فى بناء صرح الحضارة ، وتشييد منارة التقدم .

أما إذا خاض كلٌّ فيما لا يعرف وادعى ما ليس له ، انزلق المجتمع إلى متاهات لا يعرف المرء فيها طريقاً ، ولا يرى منها مخرجاً ، ولا يسمع إلا أصواتاً متداخلة ، ونغمات متنافرة ، وادعاءات ممجوجة ، تتقاذفه يميناً وشمالاً ، وتصب فى أذنه تفسيرات وتأويلات تقذف به فى مهاوى الشك والقنوط حيناً ، وتبعث عنده الأمل فى اليقين أحياناً أخرى . ولهذا ينبغى على صاحب القرار أن يُمَيِّز المتخصصين فى الدراسات الإسلامية ، بحيث يُعْرَفون للجماهير ، فلا يتطفل الجاهلون فى مجال الفتوى الدينية ، فَيَضِلُّوا ، ويُضِلُّوا ، ولا يتصدر أنصاف العلماء لتدريس العلوم الشرعية ، كى تُصان التعاليم الإسلامية من شطحات المفكرين ، وتبقى الأحكام بعيدة عن سقطات غير المتخصصين .

كيف يُـمَـيَّـزون ؟

ينقسم العمل فى مجال الدراسات الدينية إلى قسمين:

الأول : الوعظ والإرشاد والفتوى وإمامة الصلاة ، وتعليم الناس مبادئ الدين وأحكامه .

الثانى : البحوث الأكاديمية التى يهتم الباحثون فيها ، بمنطوق النصوص ومفهومها ، وصحة الرواية وفسادها ، كما يركزون على استنباط الأحكام ، مع مراعاة طبيعة العصر – هكذا يجب أن يكون – ومقتضياته ، مما يلبى

ضرورات الحياة فى إطار مجتمع دولى ، يـــركض حثيثـــاً علـــى طريـــق العلـــم والتكنولوجيا ، ويسرع الخطى فى ساحات التقدم والازدهار .

ومن الأمور البديهية أن لكل قسم رجاله ، من حيث التأهيل والتدريب ، والإمكانات ، فمن يعمل فى مجال القسم الأول ينبغى أن يؤهَّـــل فى مؤســـسات علمية خاصة ، كالأزهر وما يماثله ، بشرط أن تكون مناهج التأهيل فيه شـــاملة لكل ما يحتاج إليه الداعية من علوم وثقافة وتدريب على وسائل العصر فى مخاطبة الجماهير ، ومواجهة مشاكل المجتمعات المعاصرة . ولا يتحقق الهدف كـــاملاً إلا إذا كان اختيار العناصر المنفذة لبرنامج التأهيل على وعى تام بمتطلبات العـــصر ، والاحتياجات اللازمة لمواجهة التيارات الفكرية التى تعج بها المجتمعات ، ســـواء كانت مجتمعات إسلامية أو غير إسلامية . بالإضافة إلى مراعاة الدقة فى اختيـــار المدرسين لهذا المنهج ، حتى لا يخرج إلى الساحة عناصر عاجزة عـــن الاتـــصال بالجماهير بسبب قصورهم الذاتى ، أو خلل فى المنهج ، أو عدم وضوح الرؤيـــة عند من يتصدى لتأهيلهم .

ولكى لا يدخل الساحة مُدَّعون ، يبلبلون الأفكار ، ويخدعون الجماهير ، ينبغى أن يكون للدعاة زىّ خاص بهم لا يشاركهم فيه أحد — يحدده كل قطـــر طبقاً للظروف المناخية والأحوال الاجتماعية – حمايةً لهذا المجال من الانتهازيين ، وصوناً لمبادئ الإسلام من أن يشوهها جاهل ، أو يشيع الفتنة فى المجتمع حقود ، أو يتطاول عدو على مبادئ الإسلام ، فيعلمها لشبابنا بأسلوب يبعدهم عن روح الإسلام الصافية الخلاقة المبدعة ، فيدمر حياتهم بالسلبية والاتكالية ، والاستغراق فى عالم الأساطير والخرافات .

وليس هذا الاقتراح بدعاً من القول ، بل هو قائم على أساس منطقى ، وله مبررات عقلية ؛ ذلك أن دواعى أمن الدولة اقتضت أن يرتدى أفـــراد القـــوات

المسلحة ورجال الشرطة زياً خاصاً بهم ، حتى لا يدخل فيهم من ليس منهم ، فيرتكب مخالفات تضر بأمن الدولة ، أو يعتدى على أمن المواطنين وحقوقهم . كذلك الحال بالنسبة لأهم جانب يؤثر فى حياة الناس ، ألا وهو **الدين** ؛ إذ لو فسدت الثقافة الدينية ، لاختلت حياة الناس ، واضطربت أحوالهم ، وضاع الاستقرار النفسى والأمن الروحى ، مما يؤثر على إنتاجهم ، ويعوق مسيرتهم نحو التقدم والازدهار ، فتأمين منابع الثقافة الدينية أمر ضرورى ، بل هو لا يقل أهمية عن حماية الدولة من الأعداء ، أو السهر على أمن المواطنين من المخربين والمنحرفين ، ولهذا ينبغى على صاحب القرار ألا يتوانى فى إصدار قرار يُحَدّد الزى الخاص بالدعاة والأئمة وخطباء المساجد ، بحيث يُجَرَّم من يتعدى عليهم ، فيتزيَّى بزيهم .

ألا يؤدى هذا إلى تكوين طبقة ، تَمَيَّزَ الإسلام عن غيره بعدم وجودها ، ألا وهى طبقة رجال الدين ؟

لا ، لأن مهمتها تختلف عن مثيلاتها فى الأديان الأخرى ، فهم لا يجوز لهم التشريع كما يُشَرِّع أمثالهم فى المجتمعات غير الإسلامية ، وليسوا مقدسين كما يقدس أتباع الأديان الأخرى رجال الدين عندهم . فالوعاظ والأئمة فى الإسلام لا يختلفون عن أى مسلم آخر فى المجتمع ؟ فلا يفضلون على غيرهم إلا بالمقياس الدينى العام ، ألا وهو التقوى ، فقد يكون هناك مسلم لا يشتغل بالثقافة الدينية ، وتقواه ترفعه إلى درجة أعلى من درجة الإمام أو الواعظ . إذن ، فتَمَيُّزُهم بزىّ خاص لا يعطيهم حصانة ، ولا يرفع درجاتهم بين المسلمين إلى مرتبة القداسة ، وليس لهم فى المجتمع إلا احترام الناس لهم باعتبارهم خداماً لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ كما يُكِنُّ التلميذ الاحترام لأستاذه ، أيًّا كانت المادة التى يقوم الأستاذ بتدريسها للتلميذ.

وكما يمنع غير المتخصص فى الدراسات الإسلامية من ارتداء زىّ الأئمة والوعاظ ومن يتصدرون لتثقيف المسلمين وتفقيههم فى الدين ، كذلك لا يجوز للمتخصصين القيام بأعمالهم ، إلا إذا ارتدوا الزِّىّ الذى يُخَصَّص لهم ، مثلهم فى ذلك مثل رجال القوات المسلحة وأفراد الشرطة .

وليس معنى هذا أن للإسلام زيًّا خاصا ، يطلق عليه: " الزِّىّ الإسلامى " ، كما يدعى بعض الذين أقحموا أنفسهم فى مجال التحدث باسم الإسلام ، فالرسول ﷺ لبس جميع أردية عصره، حتى الجُبَّة الشامية ، فيحكى أنها كانت ضيقة عند المعصم ، فكان الرسول ﷺ يخلع يده اليمنى عند الوضوء ، فيغسلها ، ثم يلبسها ، وبعد ذلك يخلع اليسرى ، فيغسلها ، ثم يلبسها . وعدم تخصيص زىّ للمسلمين يدل على أن الإسلام دين عالمى ؟ إذ تتفق عالميته مع عدم تخصيص زىّ للمؤمنين به ، ذلك أن طبيعة الزىّ — وشكله – تتعلق بالطقس ، فما يرتديه المرء فى المناطق الحارة لا يمكن لسكان المناطق الباردة ارتداؤه ، وإلا تجمدوا من البرد . فلو سلمنا– جدلاً– أن الجلباب الأبيض " القصير " هو الزِّىّ الإسلامى " ، وألزمنا كل من يعتنق الإسلام بارتدائه ، لانحصرت دائرة المؤمنين به فى سكان المناطق الحارة ، لأن تعاليمه – على الأقل فيما يتعلق بالزىّ — تلائمهم وحدهم ، ولا تتمشى مع متطلبات طقس المناطق الباردة ، إذ لو اعتنق أحد سكان هذه المناطق الإسلام ، لكان لزاما عليه – بناء على رأى من يخص الإسلام بزىّ معين – أن يرتدى هذا الزىّ ، وهو الجلباب الأبيض القصير ، وفى هذه الحالة سوف يموت من شدة البرد بعد فترة قصيرة ، لا تتعدى بضع ساعات . وبذلك لا يكون للإسلام مكان فى هذه المناطق ؟ لأن من يلتزم بتعاليمه فى هذا المجال ، سوف يموت ، وبالتالى لا يجرؤ أحد... حتى على التفكير فى اعتناقه . ويترتب

على هذا أن يقتنع من يسمع هؤلاء المنادين بتحديد زىّ "خاص بالإســـلام "، أن هذا الدين لا يصلح إلا لسكان المناطق التى يتلاءم طقسها مع هذا الزى .

ألا يعد هذا متناقضا مع الدعوة إلى تحديد زىّ خاص لمن يقومون. بمهمة التثقيف الدينى ، كالأئمة ، والوعاظ ، وخطباء المساجد ؟

لا ، لأن هناك فرقا كبيرا بين الاتفاق على- تحديد زىّ خاص – أيًّا كان شكله ولونه وهيئته – لمن يعملون فى حقل الدعوة الإسلامية ، وبين أن يُدَّعَى أن للإسلام زيًّا خاصاً به ، لأن المجتمع فى الحالة الأولى ليس مُلْزَماً بنوع معين مـــن أشكال الملابس ، فهو حر فى اختياره طبقا لظروف الزمان والمكـــان ، بخـــلاف الوضع فيما لو اعتبره شكلا مقدسا لا يحيد عنه . كذلك يمكـــن تغـــييره فى أى وقت إن اقتضت الظروف ذلك ، بخلاف ما لو كان إلزاماً دينياً ، فـــلا يجـــوز تغييره، وإلا ارتكب إثماً يعاقب عليه .

هل يقبل الأئمة والوعاظ وخطباء المساجد ارتداء هذا الزى عن طيـــب خاطر ، خاصة وأن الاتجاه العام يمكن أن يوجه إلى اختيار ما هـــو معـــروف لرجال الدين، وهو العمامة والْجُبَّة (أو ما يطلق عليه " الكاكولا ") ، وهـــو لباس مُعَوِّق للحركة وسط هذا التدافع فى الشارع المـــزدحم ، وفى وســـائل المواصلات الراهنة ، التى يشترط فيمن يستخدمها أن يكون سريع الحركـــة ، بحيث لا تقيدها جُبَّة ، ولا يحد من انطلاقها عمامة فوق الرأس؟؟؟

أعتقد أنهم سيرحبون به لو اقتصر على طائفتهم ، فذلك سيسهل علـــيهم كثيرا مما يمكن أن يعانى منه من يرتدى مثل هذا اللباس ؛ فالمساعدة ستُقَدَّم لهم فى كل مكان ، وستزلل لهم الصعاب أينما حلوا ، لأن الناس سينظرون إليهم نظـــرة إجلال واحترام ، مع العلم بأنه ليس من اللازم أن يرتدوا هـــذا الـــزى فى كـــل

الأوقات ، بل يكفى أن يرتدوه أثناء تأدية عملهم ، وما عدا ذلك فهم أحرار فيما يرتدونه .

سادساً : التنسيق بين المؤسسات الدينية

وذلك بإنشاء " هيئة عليا " داخل كل قطر – تُمَثِّل فيها جميع الهيئات والمؤسسات الدينية — يُعْرَض عليها ما توصلت إليه كل هيئة أو مؤسسة من حلول لمشكلات المجتمع ، وما ارتأته من أحكام ، توصلت إليها — بعد البحث والدراسة — فى القضايا المعاصرة .

كما يُشَكَّل " مجمع إسلامى عالمى " ، تُمَثَّل فيه كل الأقطار الإسلامية (عضو أو عضوين حسب سكان ووزن كل قطر) بحيث ينظر فى القضايا العامة، وما توصلت إليه " المؤسسات والمرجعيات الدينية " القُطْرِيَّة من أحكام فى هذه القضايا ، ثم يُصْدِر حكماً تلتزم به المؤسسات الدينية والهيئات التشريعية فى كل قطر ، علماً بأن هذا لا يلغى — ولايحجر — الاجتهادات الشخصية لكل عالم، غاية ما فى الأمر أن يُعَرَّف الناس بالطرق الإعلامية المختلفة الفرق بين الرأى الفردى لعالم مجتهد ، والحكم الذى توصل إليه " المجمع الإسلامى العالمى " ، حتى تُعْطَى الفرصة للمواهب الفردية أن تعبر عن نفسها ، ولربما يأتى يوم تأخذ الهيئات العليا القطرية برأى من هذه الآراء الفردية ، وبذلك تنبض الحياة فى ساحة الاجتهاد ، وتظل الأحكام الإسلامية مواكبة للعصر ، ومتناغمة مع وقع الحياة فى المجتمع الإسلامى .

سابعاً : تكوين مكتب بحثى فى كل قطر

يتبع الهيئة العليا ، وتكون مهمته : الاضطلاع على كل ما يصدر من كتب – ومنشورات – داخل القطر ، وفحصها وكتابة تقرير عنها ، يُرْفَع إلى الهيئة ، على أن تكون مهمة الهيئة إزاء ما يخالف نصاً قرآنياً قطعى الدلالة ، أو يتنافى مع ما علم من الدين بالضرورة ، بيان هذه المخالفة ، والرد عليها رداً علمياً مقنعاً ، وليس المصادرة ، لأن مساوئ المصادرة أكبر من محاسنها ، ولأن فى الرد العلمى إحياءً للنشاط البحثى ، وازدهاراً للحركة العلمية ، فضلا عن أنه أسلوب حضارى ، يظهر سماحة الإسلام ، ويبين أن فيه من القوة ما يمكنه من الرد على أى اعتراض علمى مهما كان شأنه ، وعلى أى وضع كانت حجته .

كذلك من مهام هذا المكتب : الاضطلاع على ما يُنْشَر فى وسائل الإعلام المختلفة (المرئية والمسموعة والمقروءة) وبيان ما فيها من مخالفات صريحة للتعاليم الإسلامية ، والرد عليها إن كان هناك مجال للرد ، واقتراح التعديل إن اقتضى الأمر ذلك ، ويُرْفَع ذلك كله إلى الهيئة العليا للقطر ، لاتخاذ الإجراءات اللازمة ، بالتنسيق مع الجهات والهيئات المتعددة ، والمجالس المسئولة عن وسائل الإعلام .

ثامناً : عقد ندوات وإلقاء محاضرات عامة

يحاضر فيها نخبة من العلماء والمفكرين الممتازين علمياً ، على أن يكون لهم دراية وفهم لمعطيات العصر ، بحيث يستطيعون عرض المبادئ الإسلامية فى إطار

يفهمه الشباب ، وبحيث يكونون قادرين على مواجهة الأفكار والتيارات الفكرية المختلفة بأسلوب يقنع أصحاب هذه التيارات والمدافعين عنها بالحجة والبرهان ، على أن يكون جزء من هذه المحاضرات مركزاً على بيان الأثر الإيجابى لتعدد آراء العلماء فى المسألة الواحدة ، ويظهر أن ذلك دليل على أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان ، ومُلَبٍّ لكل الحالات التى يمر بها الأفراد والمجتمعات .

وتعمل الهيئة العليا على نشر هذا كله عبر وسائل الاتصال الحديثة : شبكة اتصال مرئية ، بحيث يكون لها شاشات عرض فى كل المساجد الكبرى فى جميع أنحاء القطر ، وكذلك على موقع شبكة الإنترنت ، ينشأ خصيصاً لهذا الغرض ، لكى تصل هذه المعلومات إلى كل مسلم ، دون حاجة إلى انتقاله إلى قاعة المحاضرة أو الندوة ، ودون تكليفه أعباء مادية بشراء كل ما تنشره الهيئة العليا من أحكام وقرارات .

التحديات الخارجية

ومن أهم نقاطها :

١- اتهام الإسلام بالإرهاب والدموية .

٢- اتهام الإسلام بأنه سبب تخلف المسلمين .

٣- اتهام الإسلام بأنه غير صالح للتطبيق فى المجتمعات المعاصرة .

٤- اتهام الإسلام بأنه لم يهتم بحقوق الإنسان ولا سيما المرأة .

وتتلخص وسائل مواجهة هذه الاتهامات فيما يلى :

أولا : دعوة العلماء والكتاب المتخصصين إلى الكتابة فى هذه النقــاط ، بحيث يشتمل منهجهم فى الرد على هذه الاقامات على العناصر التالية :

١- فى الرد على اتهام المسلمين بالإرهاب :

طرح الغرب على الساحة الفكرية مصطلح : " الإرهاب " الذى هو ترجمة لكلمــة : "terrorism " متهمين المسلمين بأنهم إرهابيون . فانبرى الخطاب الفكرى فى بلادنا يدافع فى مقالات ، وتحليلات ، وكتب ، مبيناً أن الإسلام ليس دين إرهاب ، وإنما يدعو إلى السلام والأمن ، دون أن يوضح المفكــرون أولا أن ترجمة كلمة : " Terrorism " بالإرهاب خطأ ، وربما يودى ذلك إلى عكس المطلوب ، حيث توجد مادة هذه الكلمة فى القرآن الكريم فى قولــه تعــالى : " **وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّــهِ وَعَدُوَّكُمْ** ... " [الأنفال : ٦٠] ، فإذا وُجِّه الخطاب الفكرى إلى نفى الإرهاب عن الإسلام ، فلن يقتنع غير المسلمين من الأوربيين بذلك ، وخاصة أولئك المهتمين بالبحث العلمى ــ وعلى وجه أخص : المهتمين بالدراسات الإسلامية – ، لأنهم سيجدون هذه الكلمة فى القرآن الكريم . وكان أول واجب يقوم به المفكــرون المسلمون هو تصحيح ترجمة كلمة : "terrorism" إلى العربية ، وبيــان أنهــا ليست إرهاباً ، وإنما الترجمة الصحيحة هى : " الرعــب " ، والإرهــابى هــو : " المرعب " ، أى الذى يثير الرعب فى نفوس المواطنين . أما كلمــة إرهــاب فى القرآن الكريم فهى تعنى : " الرَّدْع " ، أى تخويف الآخر من العواقب الوخيمة إذا هو أقدم على الاعتداء ، وهو مصطلح مقبول دولياً ؛ إذ شاع فى الخطاب الدولى

كلمة : " الردع النووى " ، أى أن امتلاك القوى العظمى للسلاح النووى كان وسيلة لمنع وقوع حرب عالمية ثالثة .

انشغل المسلمون فكرياً بنفى تهمة الإرهاب عنهم ، حتى بدا للمراقب لحركة المساجلة الفكرية بين الغرب والعالم الإسلامى ، أن الإرهاب منحصر فى المسلمين ، وأنهم هم — أى المسلمين — الذين يشيعون الرعب فى أركان الكرة الأرضية ، مع أن الحقيقة أن هذا التيار ليس خاصا بالمسلمين ، بل هو منتشر فى كل أرجاء المعمورة ، وبين كل الأعراق والأجناس ، وأصحاب الأديان والعقائد المختلفة ، فهو موجود فى جميع قارات الكرة الأرضية ، وفى أوربا بالذات ، حيث ظهرت جماعة " بادر ماينهوف " فى ألمانيا ، و " الألوية الحمراء " فى إيطاليا ، و " الجيش الجمهورى " فى أيرلاندا ، هذا فضلا عن ظهور مثل هذه الجماعات فى أمريكا اللاتينية (فى كولومبيا ، و نيكاراجوا وغيرهما) ، وفى أفريقيا (فى رواندا ، وناميبيا ، وأنجولا وغيرها) ، وفى آسيا (فى الهند ، وسيريلانكا ، واليابان ، ونيبال وغيرها) ، وهذه الجماعات من غير المسلمين ! ، فلماذا تلصق تهمة الإرهاب بالمسلمين ؟؟؟ بل إن بعض الجماعات الإسلامية — بصرف النظر عن موقف الإسلام والمسلمين من عملياتها ضد المدنيين — تناضل من أجل هدف مشروع ، ألا وهو تحرير أرضهم من المستعمر ، وتخليص بلادهم من سيطرة الغاصبين ، أما الجماعات الأخرى فى أوربا وغيرها ، فلم يكن لها هدف واضح مشروع ، اللهم إلا إشاعة الرعب والنهب والسلب لدى كثير منها ، ومحاولة فرض مذهب أو عقيدة معينة على الآخرين ، حتى ولو كانوا إخوانهم فى العقيدة ، كما هو الحال فى المعركة الدائرة بين البروتستانت وبين الكاثوليك فى أيرلاندا .

وبناء عليه ينبغى على المسلمين أن يركزوا على هذا الجانب عند حوارهم مع الآخرين فى الندوات والمؤتمرات التى تعقد لهذا الغرض ، لتصحيح التصور المغلوط عند هؤلاء الناس عن الإرهاب ومصدره . وهذا هو الأساس الذى ينبغى أن يبنى عليه الحوار بينهم ، وهو المنطلق الذى يجمعنا للبحث عن أسباب ما يسمونه الإرهاب الإسلامى ، ومحاولة إزالتها حتى نقضى عليه ، وإلا فلن تكون اللقاءات والحوارات سوى شقشقات لفظية ، وجمل لغوية لامفهوم لها ، وجعجعة لاطائل من ورائها ، اللهم إلا إذا كان غرضهم — وهذا ما تؤكده الأحداث — تبديد طاقات المسلمين فى هذا الحوار الفارغ ، حتى لايكون لدى المسلمين من الوقت ما يبذلونه فى حل قضاياهم الداخلية ، واسترداد ما سلبه منهم الآخرون ، وبذلك يظلون يدورون فى إطار هذه الأحداث الذى رسمه لهم هؤلاء ، فيتخلفون عن ركب الحضارة الحديثة .

٢- فى الرد على اتهام الإسلام بانه سبب تخلف المسلمين :

أ - حصر الآيات القرآنية التى تدعو إلى العلم ، وتحث على العمل ، وهما من الأسس الهامة لقيام الحضارات .

ب - بيان ما أنجزه المسلمون فى المجالات العلمية المختلفة مثل : الفلسفة ، سواء فى مجال الحفاظ على الفلسفة الإغريقية ، أم فيما أضافه المسلمون إليها ، والطب فى مجالى البحث والممارسة ، والهندسة ، والاقتصاد والتجارة وشئون المواصلات، والفن (النسيج ، صناعة السجاد اليدوى ، فن الخطوط ، أعمال السيراميك والخزف والفسيفساء ، فى المعمار ، فى صناعة المعادن والزجاج والعاج ، وغير ذلك من ميادين الإنجازات الحضارية) .

جـ - جمع ما قاله غير المسلمين عن إنجاز الحضارة الإسلامية ، وإسهامها فى النهضة الأوربية .

د - التركيز على إظهار وجه الحضارة الإسلامية الإنسانى من ناحية : العدل ، والمساواة ، والتكافل ، وتقليل الفوارق بين الطبقات فى مجالى الإنتاج والانتفاع بالثروة القومية ، وتفتيت الثروات منعاً للاحتكار والاستغلال ، وإلقاء الضوء على التعاليم الإسلامية فى مجال حقوق الإنسان : حق التعليم والعمل ، وحرية التعبير والاعتقاد ، والإقامة ، وغير ذلك من الحقوق التى تحفظ له إنسانيته ، وتحقق له الاستمتاع بالحياة على وضع يحمى ذاته ، ويحافظ على مجتمعه .كذلك ينبغى بيان ما للمرأة من حقوق فى الإسلام : المساواة مع الرجل فى الحقوق والواجبات حسب طبيعة كلٍّ منهما ، حقها فى : التعليم ، العمل ، اختيار شريك حياتها ، الإسهام بالرأى فى الأمور العائلية ، وكذلك فى القضايا العامة : سياسية كانت أو اقتصادية أوتربوية واجتماعية ، وفى كل مايتعلق بشئون الحياة مادام عندها القدرة الفكرية على هذا الإسهام .

هـ - أما فيما يتعلق باتهام الإسلام بأنه غير صالح للتطبيق فى المجتمعات المعاصرة ، فينبغى توضيح هذه المسألة على النحو التالى : تعاليم الإسلام قسمان : الأول : يتعلق بالعبادات ، وهذه مفصلة ، ومحددة ، فلا يجوز لأحد تغييرها ، أو تحويرها ، فعلى المسلم أن ينفذها بدون زيادة أو نقصان فى الأصول المتفق عليها .

أما القسم الثانى : وهو ماعدا العبادات — أى ما يتعلق بشئون الحياة — فقد أباح الإسلام للمسلمين أن يجتهدوا فيها ، وإن اقتضى الأمر تطويرها ، فلهم

ذلك ماداموا ملتزمين بالإطار العام . فإن ادعى بعض الناس أن تطبيق الشريعة الإسلامية :

- رجوع بالمجتمع إلى عصور القرون الوسطى ، لأنها صيغت لتلائم تلك الحياة الأولى...
- وتطويع للحياة العصرية لتعاليم لم تعد صالحة لمتطلبات العصر ، فهى عاجزة عن مواكبة سرعة الخطى فى طريق التقدم والرقى ، وتلبية احتياجات إنسان القرن الواحد والعشرين ....

فهو لم يفهم طبيعة التشريع الإسلامى ... ولم يدرك فلسفته وأهدافه .. إذ أن للتشريع الإسلامى محوراً يدور حوله ، ويرتكز عليه ، ألا وهو الإنسان ، إذ يركز على تقويمه ، وتهذيبه ، وإصلاح سلوكه . ومما لاشك فيه أن طبيعة الإنسان لا تتغير بتغير الزمان والمكان ؛ فالأنانية التى تسيطر على بعض أفراد من البشر لاتختلف اليوم عما كانت عليه فى الماضى ، وإن اختلفت أساليب إشباعها ... وميله إلى الاعتداء على ما فى يد الغير لا يغير جوهره ومضمونه تقدم ورقى وحضارة ، وإن حُوِّرَت وطُوِّرَت أساليب ووسائل هذا الاعتداء . وكذلك الشأن فى كل غرائزه ؛ لا تبدلها العصور ، وإن لونت مظهرها الخارجى . ولا يغير التحضر كنهها ، وإن عدل فيه ، فغير شكله . ولا يمحوها الرقى والتقدم ، بل يحجبها ، فلا تراه العين المجردة ، وإن كانت آثارها أكثر وضوحاً منها فى عصور التخلف والانحطاط .

ومن هنا ، فلا يجوز أن يرفض قانون ، بحجة أنه لم يعد صالحاً للعصر ، مادام هذا القانون يهدف إلى إصلاح الإنسان وتهذيبه ، لأن طبيعة الإنسان باقية كما هى ، على الرغم من اختلاف العصور حضارة وتقدماً ، وتفاوت مجتمعاتها ثقافة وتعليماً .

أما مايدعيه المعارضون من عدم قدرة الشريعة الإسلامية على تلبية متطلبات العصر ، بحجة أن هناك من الظواهر ما يتغير ويتبدل ، وكثير منها جديد كل الجدة — أى ليس له مثال سابق فى تاريخ المجتمع الإسلامى — ، بل إن نظام الحياة قائم على التغير المستمر والتطور المطرد ، الأمر الذى يستلزم تغيير القوانين باستمرار ، لتنسجم مع صور الحياة المتجددة ، ولتلبى احتياجات المجتمع التى تنشأ عن هذا التغير ....

فقد نشأ هذا الاعتراض بسبب عدم إدراك فلسفة التشريع الإسلامى ، ذلك أن الله أنزل التشريع الإسلامى متطابقاً مع طبيعة الوجود ، منسجماً مع كل ما يطرأ من التغيرات ، أو يظهر على الساحة من ظروف متجددة ، ذلك أنه تضمن قواعد كلية تصلح لكل الأزمنة والعصور ، وتتمشى مع ما ينبغى أن تكون عليه الحياة من الاستقرار ، أو تتفق مع الظواهر التى يشترك فيها جميع الأجناس البشرية ، ومع ذلك ، فقد تركت التفصيلات والتفريعات لعقل الإنسان ، يستخلصها حسب عصره وبيئته ، ويستنتجها طبقاً لمتطلبات ظروفه المحيطة به ، بحيث يلبى احتياجات العصر ، وفى الوقت نفسه لا تخرج عن الخط الرئيسى الذى رسمه الإسلام كمبدأ عام يلتزم به الجميع ، أو كدستور يتخذه الناس قاعدة تشريعية أصلية ، ينبثق عنها كل ما يقررونه من قوانين ، وما يرسمونه لأنفسهم من لوائح ونظم .

فالقضايا الكلية فى الإسلام هى قواعد التشريع الأساسية التى تصلح لكل شعب ، وتلبى احتياجات كل المجموعات البشرية ، على اختلاف ألوانها وأجناسها ، وتتناسب مع كل عصر وبيئة ، إذ يتخذها الجميع أساساً تستنتج منه أحكام لكل القضايا ، وعلاج لكل المشاكل التى تواجه الإنسان والمجتمعات ، فكانت هذه المبادئ الرئيسية فى التشريع أساساً للاجتهاد فى مجال الأحكام

الشرعية ، الذى بمقتضاه تكونت المـــذاهب الفقهيـــة ، فزخـــرت بالأحكـــام والتفريعات التى كانت منها فروض مقدرة الحدوث فى الأزمان المستقبلة .

فكان هذا العمل فى مجال التشريع دليلاً على مرونة الفقـــه الإســـلامى وصلاحيته لمواجهة الأحداث ، التى تظهر نتيجة لديناميكية الحركة فى مجالات الحياة المختلفة ، وعنصراً جوهرياً فى مفهوم صلاحية التشريع للتطبيق فى كـــل العصور .

ثامناً : إنشاء قسم علمى فى كل جامعة إسلامية

تكون مهمته : ترجمة كل ما ينشر عن الإسلام باللغات المختلفة إلى اللغة العربية ، وإرساله إلى " **الهيئة العليا** " فى القطر - لتقـــوم بـــدرها بإرســـاله إلى " **المجلس الإسلامى العالمى** " إن اقتضى الأمر — بعد تجهيز الرد على الاتهامـــات المثارة ، ويكلف القسم بعد ذلك لترجمة الرد إلى اللغة التى نـــشرت بهـــا هـــذه الاتهامات . كذلك يقوم القسم بترجمة كل ما يكتبه العلماء والمفكـــرون حـــول النقاط ، التى وردت فى مفردات البند السابق ، إلى اللغات الحية ، كالإنجليزيـــة ، والفرنسية ، والألمانية ، والأسبانية ، والروسية ، والصينية ، وغيرها من اللغات ، إن دعت الحاجة إلى ذلك .

تاسعاً : تدعيم المراكز الإسلامية فى الخارج

وذلك بمدها بذوى الكفاءة فى اللغة والمعلومات الإســـلامية ، علـــى أن يكون هناك اتصال دائم بينهم وبين " **الهيئات العليا** " " **والمجمع الإســـلامى**

العالمى " ، كى يرجع إليه فى الأمور التى تحتاج جهود الباحثين والفقهاء لإصدار أحكام بشأنها .

عاشراً : إنشاء مركز إعلامى

يكون تابعاً لـ " **المجمع الإسلامى العالمى** " ليعلن رسمياً قراراته وفتاويه فى المسائل والمشكلات العامة (وبتعبير آخر : يكون المتحدث الرسمى) كما يشرف هذا المركز على جهاز إعلامى يضم : " **إذاعة** " تغطى الكرة الأرضية ، ومحطة " **تليفزيون** " فضائية يصل إرسالها إلى كل أركان الأرضية ، وتبث برامجها بلغات متعددة ، لتعبر عن رأى المسلمين فى القضايا المعاصرة .

فلسفة الإلزام فى الإسلام

استقر فى ذهن كل ذى عقل وبصيرة أن الصانع خبير بما يصنع ، فهو يعلم دقائق أسراره ، لأنه هو الذى أنشأه وركبه ، ويدرك مدى قدرة الآلة التى صممها ، ولذلك يعطى لمن يستعملها بياناً بأجزائها ، وتفصيلاً بكيفية تشغيلها ، حتى لا يحملها فوق طاقتها فيفسدها ، أو يستعملها فى غير ما صممت له فيدمرها . هذه أمور لا يختلف عليها اثنان ، ولا ينازع فيها أصحاب الإدراكات السليمة : عقل واعٍ ، وفهم سليم ، ومنطق مستقيم ، ونظرة لا يشوبها ضعف ، ولا يعتريها سقم ، ولا يتسرب إليها ضلال .

إذا كان الأمر كذلك فيما يتعلق بما يبدعه المخلوق ، فأولى أن نسلم تسليماً جازماً بأن خالق الكون عليم بأسراره ومكوناته ، خبير بتوظيف كلٍّ لما خُلِق له ، فلا يضع مخلوقاً فى بيئة لا تناسبه ، ولا يطلب مما — وممن — خلق ما لا يستطيع إنجازه ، فلا يكلفه بما لا يطيق ، ولا يفرض عليه ما تعجز قدرته عن القيام به ، ومن هنا كانت التعاليم الدينية ووجوب الالتزام بها فى حدود طاقة الإنسان ، والأوامر الإلهية مناسبة لقدرته واستطاعته ، يقول تعالى " **لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا....** " [البقرة : ٢٨٦] ، حتى عند التكليف بأمر يستثنى من الالتزام به الضعفاء الذين لا يستطيعون تأديته ، أو الذين تضطرهم ظروفهم إلى عدم الالتزام به فيعفى المضطر من تناول المحرمات ، يقول تعالى : " **إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ**

بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ..... " [البقرة : ١٧٣] ، وغير ذلك من الآيات التى ترفع الحرج عن المسلم إذا اضطرته ظروفه إلى عدم الالتزام بما نهى الله عنه .[١]

فلو تتبعنا التعاليم الإسلامية التى نزل بها الوحى على رسول ﷺ ليبلغها للناس كتكليف يجب اتباع ما أمر الله واجتناب مانهى عنه لوجدناها مشتملة على هذين العنصرين الأساسيين : لا تكليف إلا على المستطيع ، وإعفاء المضطر من الإثم ، إذا ارتكب محرماً أو ترك واجباً دينيًّا ، بالإضافة إلى أن الفرائض ، سواء كانت أمراً أو نهياً لم تفرض إلا لحاجة الإنسان إليها فى حياته ، ولفائدة تعود عليه فرداً أو جماعة ، فإذا استعرضنا فريضة الوضوء ، نجد أن الله فرضه بقوله تعالى : " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ....** " [المائدة : ٦]

فتعقيبه على بيان هذه الفريضة بقوله : " **مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ ....** " يوضح الغاية من الوضوء ، **وهى الطهارة** ، أى تخليص البدن من الأوساخ والنجاسات ، وتطهيره من الشوائب والأدران التى تتسبب فى الأمراض التى تصيب جسم الإنسان . ومما لاشك فيه أن وقاية الأفراد والمجتمعات من الأمراض تبدأ من النظافة ، ولهذا تعنى المؤسسات الصحية عناية فائقة بالإرشادات الصحية التى تقوم أساساً على تعليم الناس وتعويدهم على

---

[١] إقرأ ذلك فى : المائدة ، الأنعام ، والأعراف ، والنحل ، والمؤمنون .

استخدام الماء فى تنظيف أبدانهم ، والمحافظة على تخليص بيئتهم من الأوساخ والقاذورات ، كى يحافظوا على صحتهم وسلامة أبدانهم .

قد يتساءل المرء عن علاقة غسل هذه الأعضاء الأربعة التى وردت فى الآية السابقة بالحرص على نظافة الجسم كله ، وما يتعلق به ، وما يحيط به !!!!

ولبيان هذا اللبس نشير إلى أن الإسلام لم يقتصر فى إلزام المسلم بنظافة هذه الأعضاء الأربعة ، بل أمره — فرضاً وسنة - بغسل جميع البدن فى حالات عدة : عند الجنابة ، وقبل الذهاب إلى المسجد فى يوم الجمعة وفى العيدين ...و..... و....الخ ، كما أمره بالتزين عند كل مسجد — أى عند كل لقاء مع الناس – ، يقول تعالى " **يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ** .... " [الأعراف : ٣١] ، فقد روى عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : " **لا يدخل النار من كان فى قلبه مثقال حبة من إيمان ، ولا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من كبر** ، فقال رجل : يا رسول لله ! إنى ليعجبنى أن يكون ثوبى غسيلاً ، ورأسى دهيناً ، وشراك نعلى جديداً (وذكر أشياء ، حتى ذكر علاقة سوطه) ، أفمن الكبر ذلك يا رسول الله ؟ قال : **لا ! ذاك الجمال ، إن الله جميل يحب الجمال ، ولكن الكبر من سفّه الحق ، وازدرى الناس.** " [1]

ومن يقرأ كتب الفقه الإسلامى يجد الكثير من الأوامر و النواهى التى تدور حول المحافظة على النظافة والتخلص من كل الآفات التى تضر بصحة الإنسان ، سواء كان ذلك فيما يتعلق باشتراط طهارة الثوب والمكان عند الصلاة ، أو

---

[1] مسند الإمام أحمد بن حنبل جـ ١ صـ ٣٩٩

وجوب الاستنجاء ، أو فرائض الغسل — والوضوء — وسننه العديدة ، وغيرها من الأمور التى لو التزم بها المسلمون لصاروا من أكثر شعوب الأرض نظافة ، وأشدهم حرصاً على حماية الصحة العامة بالتزامهم تعاليم الإسلام فيما يتعلق بالنظافة ؛ وأذكر أننى كتبت كتاباً عن العبادات فى الإسلام باللغة الألمانية ، وأعطيته لصديق ألمانى ، يعيش فى القاهرة ، ليراجعه لغويًّا ، فجاءنى بعد أيام مندهشاً ، وقال لى : **لو أن إنساناً قرأ تعاليم الإسلام فيما يتعلق بالطهارة ، ولم ير المجتمعات الإسلامية لظن أنها من أرقى المجتمعات نظافة ، لكن الواقع خلاف ذلك .**

وهذا ينقلنا إلى بيان فلسفة الإسلام فى هذا الجانب ، ذلك أن تركيز فروض الوضوء على غسل الأطراف فقط ، ليس لأنها أكثر من غيرها تعرضاً لما يعلق فى الهواء من شوائب وملوثات فحسب ، بل لتعويد المسلم أيضاً على طهارة كل ما يتصل به ، فمن ينظف هذه الأعضاء الأربعة خمس مرات كل يوم ، لن يهمل فى نظافة غيرها من ملبس ، ومكان وبيئة ، بمنازلها وشوارعها وطرقاتها ، وغير ذلك مما تقع عليه عينه ، أو يتصل به اتصالاً مباشراً أو غير مباشر ، إذ يحافظ على نظافة البيئة ، بل إنه لا يصبر على وجود ما يلوثها من قاذورات ونفايات ، لأنه تعود على الطهارة ، وألف النظافة ، وارتاحت نفسه للمناظر الجميلة ، ونفرت من كل ما يشوب هذا الجمال من كل قبح يشع من جنبات الملوثات ذات الروائح الكريهة .

ومما لاشك فيه أن الإحساس الذى انبثق من الالتزام بفرائض الوضوء وتعاليم الإسلام فيما يتعلق بالنظافة والطهارة يحمى المجتمع من الأمراض ، ويطبعه بطابع حضارى ، يساعد على العمل والإنتاج ، فتنهض الأمة ، وتزدهر الحياة فيها بما يسهم فى بناء دولة تتبوأ مكانة سامية بين الأمم .

قد يقال : إذا فهم هذا من غسل الأعضاء التى فرض الله طهارتها للصلاة ، فكيف نفهم هذا من التيمم ، وهو وضع التـراب علـى الوجـه واليـدين إلى المرفقين ؟؟؟

علل الفقهاء فرضية التيمم ، بأنه بديل الوضوء عند تعذر استعمال المـاء ، كأن يكون مفقوداً ، أو ينتج ضرر لا يمكن تحمله عند استعماله ، أو يحول بينـه وبين الحصول عليه حائل لا يمكن التغلب عليه ، لأن الفرض — وخاصة إذا كان يتعلق بالصلاة – إذا تعذر القيام به فلا بد أن يكون له بديل ، أيًّا كان نوع هذا البديل ، حتى لا يسقط الفرض دون تأدية عوض عنه .

وقد قيل أيضاً : إنه أمر تعبدى ، ولا يسأل عن علة الواجبات التعبديـة ، مهما كانت هيئتها وأشكالها ، وعلى أى وضع كان تنفيذها والالتزام بتأديتـها ؛ فقد يكون لها أسرار وفوائد ، لم يتمكن الإنسان بوسائله المحدودة من الوقـوف عليها ومعرفتها . يردد المعلمون والمتعلمون — وأنا منهم — هذا التفسير للتيمم فى المدرجات العلمية وفى الدروس الدينية ، ويسجلونه فى كتبهم وأبحاثهم ، ويجيبون به من يسألهم من غير المسلمين ، ويفندون به مطاعن المستـشرقين علـى هـذه الفريضة ، وإن كان بعضهم — أى بعض المستشرقين - لا يقتنع بهذا التعليـل ، ويظل على موقفه بأن التيمم لا معنى له ، ولا فائدة فيه فى مجال النظافة والتطهر . وكنت دائم البحث والتفكير عن صيغة منطقية أشرح بها هـذا الفـرض لغـير المسلمين ، فهدانى تفكيرى إلى أن أطلق فى كتابى : " العبادات فى الإسـلام " باللغة الألمانية على التيمم مصطلح : " الطهارة الرمزية " ، وظننت أنه اصـطلاح يحد من هجوم المشتغلين بالدراسات الإسلامية من غير المسلمين... إلى أن سـاق لى القدر — بتوفيق من الله — حلاً شافياً لهذه المشكلة ؛ فقد شـاهدت برنامجـاً حواريًّا فى التلفزيون مع إحدى الباحثات فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، وكـان

موضوع بحثها لنيل درجة الدكتوراة عن عادات وتقاليد البدو الذين يعيشون فى أعماق الصحراء . ذكرت الباحثة أنها عاشت بينهم تسع سنوات ، ولم يكن عندهم من الماء إلا ما يكفى للشرب وللطهى فقط ، فلما استفسرت منها المذيعة عن كيفية الحياة بدون ماء للاستحمام والنظافة ، ردت عليها بأن وسيلة النظافة فى تلك المناطق هى الرمل ، فلو أخذت حفنة من الرمل ودلكت بها جسمك لزال كل ما علق به من ذرات الجو وشوائبه ، بل إن الجلد يصير ناعماً براقاً ، ونظيفاً نظافة تفوق ما يحدثه الماء فى جسم الإنسان ! لا تعليق !!!! فالقصة أبلغ دليل على حكمة مشروعية التيمم ، وفيها الإجابة على كل ما يوجهه المستشرقون إلى الإسلام من طعن فى هذه الفريضة .

الصلاة تهذب الأخلاق وتقوم السلوك

من الظواهر المألوفة فى العلاقات الإنسانية أن القوى يملى إرادته على الضعيف الذى لا يجد مفرًّا من تنفيذ ما يأمر به صاحب السطوة والسلطان ، وقد تكون هذه الأوامر — فى الغالب الأعم — لا معنى لها ولا هدف سوى السيطرة والتحكم ، وإشباع هوى النفس التى تميل — غالباً — إلى التسلط على الغير ، والتلذذ بآلام الناس وأوجاعهم ، ذلك أن الأنانية عند الإنسان تميل إلى حب إصدار الأوامر إلى الغير ، وعشق امتثال الآخر لأوامرها بصرف النظر عن سهولة تنفيذ هذه الأوامر ، أو عدم إمكانية الالتزام بها ، وبعيداً عما يترتب على هذا التنفيذ من نتائج وآثار ، فمحور العلاقة تقوم — غالباً — على أساس إشباع الذات عند القوى ، والاستمتاع بخضوع الآخر له ، والالتزام بأوامره ، مهما كانت العقبات والنتائج .

هذا فى الجانب الإنسانى ، أما العلاقة بين العابد والمعبود ، أو بين الله والإنسان ، ففلسفتها تقوم على أساس أن الله عليم بخلقه ، مدرك لقدراتهم ، لطيف بهم ، حنون عليهم ؛ فلا يلزمهم بما لا يقدرون عليه ، ولا يكلفهم بما يسبب لهم الآلام والأوجاع ، ولا يلزمهم بشيء لمجرد الإلزام ، بل تدور كل أوامره ونواهيه حول ما هو مستطاع ، وفى دائرة الممكن ، بالإضافة إلى أن الهدف الأساسى من إلزام الإنسان بالأوامر و النواهى الدينية هو لصالح الإنسان ، كفرد ، ولسلامة المجتمع الذى يعيش فيه ، ولخير الناس كلهم الذين يعيشون معه على هذه الكرة الأرضية ، مهما اختلفت أوطانهم وعقائدهم ، فلا يعود شيء إليه من جراء إلزام الإنسان بأوامره ، ولا يبغى من وراء طاعة الإنسان وامتثاله له إلا مصلحة الإنسان فى حياته فرداً كان ، أو عضواً فى أسرة ، أو مواطناً فى مجتمع ، أو مشاركاً فى الحياة الإنسانية ، ولذلك يجب على المسلم الامتثال لأوامر الله ، لأن فى ذلك صلاحه فى الدنيا وفلاحه فى الآخرة ، فكما رأينا فائدة الوضوء وآثاره على الصحة بوجه خاص ، وفى الحياة بوجه عام ، كذلك لو تتبعنا كل الفرائض فسوف نجد فى كل فريضة فوائد جمة ، منها ما استطاع عقل الإنسان المحدودة قدرته التوصل إليها ومعرفتها ، ومنها ما استأثر الله بعلمه ، ففرضية الصلاة عبادة ، وفى الوقت نفسه لصالح الإنسان والمجتمع ؛ إذ هى الركن الثانى فى الإسلام بعد الشهادتين ، وهى أهم ركن فى الدين الإسلامى ، فقد فرضها الله على عباده ليعبدوه وحده ، ولا يشركوا معه أحداً من خلقه فى عبادته ، يقول الله تعالى : "...... **إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا** " [النساء : ١٠٣]

أي فرضاً محدداً بأوقات لا يجوز الخروج عنها، قال عليه الصلاة والسلام :
" **خمس صلوات كتبهن الله على العباد ، فمن جاء بهن ، ولم يضيع منهن شيئاً**

استخفافاً بحقهن ، كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة ومن لم يـأت بهـن ، فليس له عند الله عهد .... " [١]

وقد وردت أحاديث كثيرة فى تعظيم شأن الصلاة ، لأن مترلتها لا تعدلها مترلة أى عبادة أخرى ، فهى عماد الدين ، الذى لايقوم إلا به ، قـال رسـول الله ﷺ : **" رأس الإسلام الصلاة ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهـاد فى سبيل الله . "** [٢]

وهى أول ما أوجبه الله تعالى من العبادات ، قال أنس " فرضت الـصلاة على النبى ﷺ ليلة أسرى به خمسين ، ثم نقصت حتى جعلت خمساً ، ثم نودى يا محمد ! إنه لا يبدل القول لدى ، وأن لك بهذه الخمس خمسين ." !!!!

وهى أول ما يحاسب عليه العبد ، نقل عبد الله بن قرط قال : قال رسول الله ﷺ : **" أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة الصلاة ، فإن صلحت صلح سائر عمله ، وإن فسدت فسد سائر عمله . "** [٣]

وهى آخر وصية يوصى بها رسول الله ﷺ أمته عند مفارقته الدنيا ، إذ ظل يقول — وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة – : **" الـصلاة الـصلاة ، ومـا ملكـت أيمانكم."** [٤]

وهى آخر ما تفقد من الدين ، فإن ضاعت ضاع الدين كله ، قال رسول الله ﷺ : **" لتنقض عرى الإسلام عروة عروة ، فكلما انتقضت عروة تـشبث الناس بالتى تليها ، فأولاهن نقضاً الحكم ، وآخرهن الصلاة "** [١]

---

[1] سنن أبي داود .

[2] سنن الترمذى .

[3] راجع الترمذى .

[4] المستدرك على الصحيحين .

وقد وردت أحاديث كثيرة فى الحث على أدائها فى أوقاتها ، والنهى عن الاستهانة بأمرها ، والتكاسل عن إقامتها ، فمن ذلك قوله ﷺ : **مثل الصلوات الخمس كمثل نهر عذب يمر بباب أحدكم ، يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ، فما ترون ، أيبقى ذلك من درنه شيئاً ؟ "** قالوا : لاشيء ، قال ﷺ : **"فإن الصلوات الخمس تذهب الذنوب كما يذهب الماء الدرن"**[2]

والمتتبع لآيات القرآن الكريم يرى أن الله ﷻ يذكر الصلاة ويقرنها بالذكر تارة ، يقول الله تعالى : ".... **إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ** " [العنكبوت : ٤٥] ، ويقول : " **قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى**" [الاعلى : ١٤-١٥] ، ويقول تعالى : " **وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي** " [طه : ١٤]

وتارة يقرنها بالزكاة ، يقول تعالى :

" **وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ**.... " [البقرة : ٤٣] ، ومرة بالصبر ، يقول تعالى : " **وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ**.... " [البقرة : ٤٥]،وطوراً بالنسك ، يقول تعالى : " **قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** " [الأنعام : ١٦٢ - ١٦٣]

وأحياناً يفتتح بها أعمال البر ، ويختتمها بها ، كما فى أول سورة "المؤمنون" ، حيث يقول الله تعالى : " **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ** " إلى قوله : " **وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ**

---

(1) صحيح ابن حبان .

(2) صحيح البخارى .

يُحَافِظُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " [المؤمنون : ١ - ١١]

فَقِرَانُ الصلاة بالذكر إشارة إلى أنها صلة بين العبد وربه ، فإذا كانت خالصة لوجه الله تعلق قلب المصلى به ، فلا يباشر عملاً نهى الله عنه ، ولا يهمل فى شيء فرضه الله عليه ، فهو فى ذكر دائم . وليس المراد بالذكر هنا هو التمتمة والتسبيح ، ولكن تعلق القلب بأوامر الله ، فيحرص على أدائها ، وتذكر ما نهى الله عنه ، فيجتنبه ، وبهذا يصير إنساناً ربانيًّا ، أى قلبه دائم الصلة بالله . ومما لاشك فيه أن هذا هو هدف الصلاة ، فليست الصلاة إلا وسيلة لربط العبد بربه ، حتى يكون إنساناً صالحاً لنفسه ، مفيداً لأهله ، ومنتجاً لأمته . ولبيان حقيقة الذكر ومكانته فى حياة المسلم عبر عنه الله ﷻ بأنه أكبر من الصلاة فى قوله تعالى : ".... **إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ**.... " [العنكبوت : ٤٥] ، وليس من المعقول أن يكون الذكر والتسبيح على المسبحة أكبر من الصلاة ، وإنما المراد عدم نسيان المسلم أوامر الله فى كل أنشطة الحياة ، حتى لا يقترف إثماً ، أو يفرط فى واجب ، وهذا هو الهدف الأسمى و الحقيقى للصلاة ؛ إذ هى حماية للمسلم من غواية الشياطين ، فتقوده إلى عمل الخير ، ومساعدة من يحتاجون إليه ، وتحول بينه وبين ارتكاب المعاصى ، من أى نوع كانت ، سواء المتعلقة بحق الله ، أو متصلة بمن يعيشون معه فى الأسرة والمجتمع ، ولهذا وزعت أوقاتها على امتداد النهار كله ، من الفجر حتى العشاء ، فهى بمثابة تذكير له بين الحين والآخر — طول النهار — بما فرضه الله عليه ، وبما حُرِّمَ عليه ، وبذلك تُؤَدِّى دور الحراس على سلوك الإنسان ، وُزِّعوا على فترات النهار ، حتى لا يطول الوقت فينسى ذكر الله ، إذ كلما قارب على النسيان فى فترة الصباح جاءت صلاة الظهر لتذكره ، ثم بعد مضى وقت تأتى صلاة العصر

للتذكير ، ثم المغرب فالعشاء ، وبعد ذلك يحين وقت النوم فلا يحتاج إلى ما يُذَكِّرُه .

وقِرَانُ الصلاة بالزكاة فى القرآن الكريم دليل على أنهما متلازمان ، فلا ينبغى ، بل ولا يُتَصَوَّر من مسلم أن تكون صلاته خالصة لوجه الله ، ويمنع حق الفقراء ، فالصلاة الصحيحة تدفعه إلى الإنفاق فى سبيل الله ، وتحثه على مد يد المساعدة للفقراء والمحتاجين ، وتربى فيه الميل إلى بذل المال فى سبيل الدفاع عن الإسلام والمسلمين ، وتحبب إليه الإسهام بكل ما يملك فى بناء وطنه : اقتصادياً ، وسياسياً ، وعسكرياً وحضارياً ، وتغرس فى نفسه حب المشاركة فى سبيل تحسين وطنه وبيئته .

كذلك قِرَانُ الصلاة بالصبر بيان للمسلم بأن صلاته تعينه على تحمل المشقات ، وتساعده على الصبر فى مواطن الأزمات ، وتقويه على الجلد فى الملمات ، فيصير إنساناً قوياً ، لا تكسره الشدائد ، ولا تضعف عزيمته المشاكل التى تواجهه ، بل يقابلها بعزم وإصرار على تجاوزها ، بكل ما يملك من علم ومعرفة ، وبما لديه من شجاعة وإقدام .

وقد بلغ من عناية الإسلام بالصلاة أن أمر بالمحافظة عليها فى الحضر والسفر ، والأمن والخوف ، فقال تعالى : " حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ للّهِ قَانِتِينَ * فَإنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ " [البقرة : ٢٣٨ - ٢٣٩] ، وقال مبيناً كيفيتها فى السفر والحرب والأمن : " وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا * وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ

وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ .. " [النساء : ١٠١ - ١٠٢]

أما فوائدها على المصلى فكثيرة ، ذكر القرآن الكريم بعضاً منها فى قوله تعالى: " **إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ** ... " [العنكبوت : ٤٥] ، أى أنها وسيلة لعلاج الأمراض الاجتماعية ، فالكذب منكر ، واستغلال الضعفاء منكر ، والتفريط فى الواجب منكر ، وهتك العرض فحشاء ، وكل ما يسيء إلى سمعة الناس ويزعزع كيان الأسرة ويهدم بنيانها من الفواحش التى تنهى الصلاة عنها ..إلخ . فالصلاة تنهى عن كل عمل يلحق الضرر بالفرد والجماعة ، وتغرس فى النفوس حب الإنسان لأخيه الإنسان ، وتنمى فيها الإحساس بآلام الآخرين ، فتدفع المصلى إلى مد يد المساعدة للفقراء والمساكين ، وتوجهه إلى حماية المجتمع من كل ضرر يلحق الأذى بالأرواح والأموال ، والحرص على هويته وثقافته ، والتمسك بكل ما يعلى شأن الوطن ويحافظ على بيئته .

فمن لم تظهر عليه هذه الآثار فلا صلاة له ، إنما هى ركوع وسجود بغير روح ، ولن يثيبه الله عليها ، بل إنها لا وزن لها فى عالم الثواب والجزاء ، يقول رسول الله ﷺ : " **من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً .** "

فالصلاة تهذب النفس ، وتُقوِّم السلوك ، وتحمى الإنسان من الوقوع فى الفحشاء وتمنعه من الاقتراب من المنكر ، فهى وسيلة تربية للفرد ، وحماية للمجتمع من الفحشاء ، فلو انتشرت الفحشاء فى مجتمع يحافظ على الصلاة ، فصلاته لا روح فيها ، ولا أثر لها ، لأنها صلاة صورية ليس بينها وبين روح المصلى صلة ، اللهم إلا ركوع وسجود ظاهرهما أجوف . وإذا ساد المنكر فى مجتمع يحرص على تأدية الصلاة فى وقتها ، فهو أداء مظهرى ، لا فائدة فيه ، ولا

أثر له ، يقول رسول الله ﷺ فى حق هؤلاء : " **من لم تنهه صلاته فـــلا صـــلاة له .** "

ومن هنا ينبغى ألا يحكم المرء على إنسان بالتقوى والصلاة لمجرد أنـــه رآه يرتاد المسجد ويحافظ على تأدية الصلاة ؛ فقد طلب عمر بن الخطاب ﷺ مـــن شاهد أن يأتيه بمن يعرفه حتى يقبل شهادته ، فجاءه برجل أقر بأن هذا الـــشاهد من أهل الصلاح ، فاقبلوا شهادته ، فقال عمر لهذا الرجل : أتسكن بجـــواره ؟ ، فقال : لا ! فوجه إليه عمر سؤالا ثانياً قائلاً له : أرافقته فى ســـفر ؟ ، فأجـــاب الرجل : لا ! فسأله عمر : أكانت بينك وبينه معاملات مادية ؟ فقال الرجـــل : لا ! ، فقال له عمر : لعلك رأيته يتمتم بالصلاة فى المسجد ! فقال الرجل :نعم ! (أى أنه لا يعرف عنه شيئاً سوى أنه رآه محافظاً على تأدية الصلاة) ، فالتفت عمر إلى الشاهد وقال له : اذهب يا رجل ! فأتنى بمن يعرفـــك ، فـــإن هـــذا لا يعرفك !

هذا الموقف من عمر بن الخطاب ﷺ يبين لنا بوضوح أن مقياس التقـــوى والصلاح هو السلوك الطيب ، والخلق الحسن ، والبعد عن الفحشاء والمنكـــر ، ولا يتحقق للمرء ذلك إلا إذا أدى الصلاة بإخلاص وتجرد، وخوف من الله ﷻ ، وعزم على اتباع أوامر الله واجتناب نواهيه فى جميع مجالات الحياة خوفـــاً مـــن عذابه ، ورجاء فى ثوابه فى الدنيا والآخرة .

فوائد الصيام العلمية والأخلاقية

فرض الله الصيام علـــى المـــسلمين ، وربطـــه بـــشهر قمـــرى ، هـــو شهر رمضان ، فقال تعالى : " **شَهْرُ رَمَضَانَ الَّـــذِيَ أُنـــزِلَ فِيـــهِ الْقُـــرْآنُ**

هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ .. " [البقرة : ١٨٥] ، وكان ارتباط الصيام بشهر قمرى ، وليس بشهر شمسى ، تحقيقاً للعدالة بين المسلمين فى جميع أنحاء الكرة الأرضية ، ذلك أن الإسلام دين عالمى لكل الناس فى جميع أنحاء العالم ، ومعلوم أن فصول السنة لا تتحد إلا فى الأقطار الواقعة على خط عرض واحد ، بمعنى أن ما يقع على خطوط العرض فى نصف الكرة الشمالى ، يختلف عما يقع على خطوط العرض فى نصفها الجنوبى ، فإذا كان فى الشمال صيفاً ، كان فى الجنوب شتاءً ، وإذا كان فى الجنوب شتاءً كان فى الشمال صيفاً ، وهذا معروف لمن عنده إلمام بسيط بعلم الجغرافيا ، ومشاهد لمن عنده اهتمامات ثقافية فى هذه الناحية ، إذ يعرف أن ذروة فصل الصيف فى جنوب القارة الإفريقية يحل فى شهر يناير ، بينما هو ذروة فصل الشتاء فى أوربا والعكس بالعكس ، ففى شهر يوليو يحل البرد والصقيع فى جنوب الكرة الأرضية ، بينما يتمتع سكان النصف الشمالى بالطقس الصيفى .

فلو فرضنا أن الصوم فرض فى شهر يوليو ، لظل سكان نصف الكرة الشمالى يصومون طول حياهم صيفاً ، وسكان النصف الجنوبى يصومون طول حياهم شتاءً .

وهذا أمر يتنافى مع عدل الله فى التكليف ، فاقتضت حكمة الله أن يتغير وقت شهر الصوم بين الفصول كلها ، ليؤدى الناس فى جميع مناطق الكرة الأرضية الصيام فى جميع فصول السنة ، بل إن الفرد الواحد سوف يصوم فى جميع هذه الفصول ، لأننا إذا عرفنا أن متوسط عمر الإنسان يتراوح بين الخمسين والستين سنة تقريباً ، وتكليفه بالصوم يحين فى سن الخامسة عشرة ، فسوف يصوم رمضان فى كل شهور السنة ، لأن الدورة تتم فى ثلاث وثلاثين سنة

تقريباً ، فإذا أضيف هذا العدد إلى سن التكليف ، وهو خمس عشرة سنة ، لأصبح عمره ثمان وأربعين سنة ، وهو أدنى مجال متوسط عمر الإنسان .

فالحكمة فى اختيار شهر قمرى للصوم ، هو لتحقيق العدل بين الناس فى التكليف ، أى كى لا يصوم سكان منطقة فى الصيف طول حياتهم ... وسكان منطقة أخرى فى الشتاء طول حياتهم ...

ولكن ارتباطه بشهر قمرى أحدث ارتباكاً بين المسلمين فى بدء الصوم ، لأن منازل القمر تختلف من بلد لآخر ، أو لأن رؤيته بالعين المجردة تحدث اختلافاً بين الأقطار فى تحقيق الرؤية ، كذلك يتعذر فى بعض مناطق الكرة الأرضية تطبيق التحديد المشروع للصوم ؛ إذ كيف يصوم المؤمن من الفجر إلى الليل فى بلد لا تغيب عنها الشمس شهراً أو شهرين ، وربما يطول إلى ستة أشهر كما فى بعض المناطق القطبية ، إلا إذا أدركنا أن بدء الصيام بظهور هلال رمضان وانتهاءه بظهور هلال شوال ، وأن بدء الإمساك بالفجر وانتهاءه بغروب شمس اليوم مبنى على توقيت معظم مناطق الكرة الأرضية ، والمطلوب منا تقدير الزمن فى تلك المناطق التى تغيب فيها الشمس أو تشرق شهوراً ، أو أياماً بحسب أقرب المناطق التى يتعاقب عليها الليل والنهار بصورة عادية ، كما أشار إلى ذلك حديث الدجال ، حيث جاء فيه على لسان الصحابة رضى الله عنهم : " قلنا : يا رسول الله ! .... فذلك اليوم الذى كسنة ، أوَ تكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال : " **لا .. اقدروا له** ." ، ففيه إشارة إلى أنه لو حدث أن طال اليوم بصورة غير مألوفة ، فيجب علينا أن نقدر منه مقدار اليوم ، ونحدد على أساسه مواقيت الصوم والصلاة ، ولا يتأتى ذلك إلا طبقاً لقواعد علم الفلك ، ولا يمكننا القيام بهذا العمل إلا إذا تقدم علماؤنا فى مجال هذا العلم ، وأصبحوا قادرين على حساب

الزمن الذى تستغرقه الأرض فى دورانها حول نفسها وحول الشمس ، ومقـــدار قربها وبعدها من القمر ..

إذن فربط العبادات بالظواهر الفلكية ، كان دافعاً للعلمـــاء إلى البحـــث والتنقيب فى هذا العلم ، ووضع نظرياته على أسس علمية ، وهذا ما حـــدث فى الدولة الإسلامية ؛ إذ بعد ما كان الفلك قبل الإسلام قائماً على التنجيم بأسلوب غير علمى ، اتجه فى العصر العباسى وما تلاه من العصور — التى ظهـــرت فيهـــا الاكتشافات العلمية الحديثة — إلى وضع النظريات العلميـــة فى هـــذا المجـــال ، فأُنشِئَت المراصد المجهزة بأحدث الأجهزة فى العواصم الإسلامية وغيرها لكـــشف ما فى الكون من أسرار وظواهر طبيعية ، فتقدم علم الفلك تقدماً كبيراً ، إذ وضع العلماء قوانين هندسية مبرهنة للكشف عن مقادير الحركات الظـــاهرة للـــشمس والقمر وسائر الكواكب بالتحديد ، فكان هذا إنجازاً حضارياً على هذا الطريق ، وخطوة أولى شجعت الباحثين من مختلف الجنسيات على السير فى هذا الطريق ، حتى وصل اليوم إلى درجة لم يكن من الممكن أن يتصورها الإنسان فى الماضى . فإنجاز علماء الإسلام فى عالم الفلك يعتبر خطوة رائـــدة ، كانـــت العبـــادات الإسلامية من أهم الأسباب فى اتخاذها .

فلو تتبعنا كل الفرائض ، فسوف نجد فى كل فريضة فوائد جمة ، منها مـــا استطاع عقل الإنسان المحدودة قدرته التوصل إليها ومعرفتها ، ومنها ما اســـتأثر الله بعلمه ، فقد توصل فهمنا إلى معرفة شيء يسير من فوائد الصوم ، ألا وهو أنه يهذب النفس ، ويصفى القلب ، ويرقق المشاعر ، ويساعد على التحمـــل عنـــد الحاجة ، ويغرس فى قلوب المؤمنين الرحمة والعطف على الفقراء والمحتاجين ؛ إذ عندما يحس المسلم بالجوع فى الصيام ، يتذكر ألم المحرومين ، الذين ليس عنـــدهم ما يقتاتون به ، ويتصور تأوهات الأطفال واليتامى الذين يبيتون على الطـــوى ،

ويصبحون وليس عندهم ما يسدون به رمقهم ، ويسكتون به صياح بطونهم من تقلصات أمعائهم الخاوية ، وبطونهم المتأوهة من غياب الطعام عنها فترات تلو فترات ، فقد قيل ليوسف عليه السلام : لِمَ تجوع وأنت على خزائن الأرض ؟ ، فقال : أخاف أن أشبع فأنسى الجائع .

هذا هو إحدى فوائد الصيام : شعور بحال الفقير ، وإحساس بألمه ، يدفع المسلم إلى مد يد العون له ، وإعطائه ما يكفيه . فهو نظام يدفع للتكافل والتعاون ، وأسلوب لمحاربة الفقر والعوز ، وحماية لأرواح شريحة واسعة فى المجتمع من الهلاك والضياع ، وسد متين — إن أُحْسِن الاستفادة منه — يحد من فتك الفقر بالعديد من المُعَدمين والمحرومين .

هذا بالنسبة للأغنياء ، أما فوائده التى توصل فهمنا إليها بالنسبة للفقراء ، فهو يدربهم على تحمل الحرمان ، فلا يدفعهم سعارهم المادى إلى ارتكاب المحرمات ، أو ممارسة التعدى على مال الغير ، فهم قنوعون بما قسم الله لهم ، راضون بما فى أيديهم . وهذا من أنجع وسائل التربية للفقير والغنى ، وسيلة تعجز الاتجاهات الفكرية المتعددة ، والنظم والقوانين الوضعية المختلفة عن الوصول إلى ما يحققه من استقرار ، وتعاطف ، وتواد بين أبناء الأمة .

الزكاة حماية للمجتمع

يحتل المال مركزاً رئيسيًّا فى الحياة البشرية ، سواء كان ذلك على مستوى الفرد أم فى حياة المجتمع ؛ إذ يتوقف عليه النشاط الإنسانى فى جميع مجالات الحياة ، وبه تدور عجلة تاريخ الأمم ، فمن لا ثروة له ، فلا تاريخ له ، إذ به تقام الحضارات التى يسجلها تاريخ الأمم والشعوب ، وعليه تشيد المدنيات التى يفخر

أصحابها بتدوينها فى صفحات تاريخهم ، وفى الوقت نفسه فهو مصدر لمعظم المآسى التى تصيب الإنسان ، ومصدر كثير من الشقاء الذى يعانى منه الأفراد والجماعات ، سواء كان ذلك فى مشقة الحصول عليه ، أو فى كثرته كثرة تدفع إلى الفساد والطغيان .

فمن يحرم منه ، ويعانى فى سبيل الحصول على قسط منه يقيم أوده ، ويحفظ عليه حياته ، فهو معذب فى حياته ، ومن يحصل على قسط وافر عن طريق غير مشروع فقد ظلم نفسه ، وذلك بإماتته الروح الإنسانية فى داخله ، إذ هو قد سلب الآخرين حقوقهم عن طريق الغش والخداع ، وبأسلوب يتنافى مع ما تقتضيه العدالة ، وتحتمه الفضيلة على الإنسان ، كذلك من ينفقه فى وجوه غير مشروعة ، فهو يدمر نفسه ، ويعمل على انهيار مجتمعه .

ولهذا ركزت الأديان فى كثير من تعاليمها على تنظيم التعامل مع المال ، سواء فى الحصول عليه ، أم فى إنفاقه ، فجاءت الوصية فى الإسلام بأن يلتزم الإنسان بالأمانة فى التعامل فى مجال المال مع الآخرين ، فلا يخدع أحداً ، ولا يظلمه ، سواء كان بائعاً له ، أو مشترياً منه ، فإن لم يفعل ، فسينتظره عقاب أليم فى الآخرة ، يقول تعالى : " **وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ** " [المطففين : ١ - ٥]

ويقول : " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ.....** " [النساء : ٢٩]

و لكى لا يتركز المال فى أيدى طبقة محدودة فى المجتمع ، فرض الله عدة صور من شأنها تفتيت الثروة ، وإعادة توزيعها على أكبر عدد ممكن ، ليعتدل

ميزان الثروة فى المجتمع ، فلا يميل إلى ناحية دون أخرى ، وليحصل كل على نصيب يساعده على مواجهة مطالب الحياة ، كما أن فى هذا التوزيع إرضاء للمحرومين ، وإطفاء لنار الحقد لدى المحتاجين ، وفى ذلك استقرار لحياة المجتمع ، وأمن وأمان لمن حُرِم من المال ، ونزع لفتيل ما يسمونه " ثورة الجياع " .

ويقوم توزيع الثورة فى الإسلام على النقاط الرئيسية التالية :

أ. الميراث ، ففى قوله تعالى : " **يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ** " [النساء : ١١ - ١٢] ففى هاتين الآيتين والآية

رقم ١٧٦ من نفس السورة وكثير من الأحاديث النبوية تفتيت للثروة بتوزيعها على عدة أفراد بعد أن كانت مركزة فى يد فرد واحد .

ب- الزكاة ، فقد ورد الأمر بإخراجها ووصف المؤمنين بأنهم هم الذين يؤدونها فى القرآن الكريم فى أكثر من ثلاثين آية . وليست الزكاة فضلاً يتفضل بها الغنى على الفقير ، بل هى حق للفقير فى مال الغنى ، يقول تعالى : " **وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ** " [المعارج ٢٤ - ٢٥] ، فهى واجبة يؤديها الغنى للدولة لتقوم بتوزيعها على الفقراء والمحتاجين ، فإن امتنع عن أدائها ، فإن الحاكم مطالب بإلزامه بأدائها ، حتى لو اقتضى الأمر استخدام القوة فى ذلك ، فما فعله أبو بكر الصديق مع الممتنعين عن أدائها سنة ينبغى الاقتداء به فيها ، بل هو واجب على الدولة الالتزام به تطبيقاً لقول أبى بكر الصديق رضي الله عنه " والله لو منعونى عقالاً كانوا يؤدونها لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه." [1]

وحُدِّدَت الأصناف التى تجب فيها الزكاة بأربع مجموعات :

المجموعة الأولى : الذهب والفضة (أو المال المدخر) ، وتجب فيه الزكاة إذا بلغ النصاب ، وهو بالمقادير الحديثة ما يعادل ٨٥ جراماً فى الذهب ، ومائتى جرام فى الفضة ، واتفق الفقهاء على أنه لا تجب الزكاة فى غيرهما من المعادن كالماس والزبرجد وما شابهما . غير أنى أرى أنه قياساً على الذهب والفضة تجب الزكاة فى المعادن النفيسة الأخرى إذا بلغ ما يملكه المسلم منها

---

[1] صحيح البخارى جـ ٦ رقم ٦٨٥٥

ما يعادل نصاب الذهب أو الفضة ، وذلك طبقاً لما يفهم من قوله تعالى : " وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ " [المعارج ٢٤ - ٢٥] ، فهذه المعادن أموال ، للفقراء والمساكين حق فيها ، يجب على مالكها إعطاءه لهم ، وإلا حق عليه العذاب الذى ورد فى الآية ٣٥ من سورة التوبة على رأى كثير من المفسرين .

كذلك تجب الزكاة فى كل ما يخرج من باطن الأرض من معادن كالحديد والقصدير وغيرهما ، ففيه الخمس ، أى يُعْطَى قيمة خمس ما يُستَخرَج من الأرض للفقراء والمساكين ، ويأخذ البترول حكم ما يستخرج من باطن الأرض من معادن ، ففيه الخمس ، وعليه فيجب على كل الأنظمة والمؤسسات الإسلامية التى تستخرج البترول إخراج قيمة الخمس منه للفقراء والمساكين ، فإن لم يوجد محتاجون فى منطقة الاستخراج ، يعطى لفقراء القطر الذى يليه ثم الذى يليه ..... فإن فاض يُستَثْمَر فى مشروعات يُنْفَق عائدها فى سبيل الله .

المجموعة الثانية : الزروع ، كالحنطة ، والشعير ، والتمر ، وهذه هى الأصناف التى حددها الفقهاء فى مجال إخراج الزكاة من هذه المجموعة . وأرى أن هذا التحديد أملته ظروف بيئية ، حيث لم يكن هناك أصناف من الزروع غيرها ، أما فى العصر الحديث فقد استحدثت أنواع أعلى قيمة ، وأكثر ربحاً من هذه الأصناف ، كالفواكه بأنواعها المتعددة ، وخضروات عدة ، استحدثت ويربح منها الزراع أضعاف ما يربحون من الحنطة والشعير والتمر ، فمن غير المعقول ألا يُفْرَض فيه نصيب للفقراء والمساكين ، فهذا إجحاف فى حق طبقة عريضة فى المجتمع ، تحتاج إلى ما يساعدها على مواجهة الحياة والعوز، وعليه فتجب الزكاة أيضاً فى كل أنواع الزروع ، إذا بلغ إنتاجها مايعادل — ماديًّا — نصاب الحنطة .

المجموع الثالثة : البهائم كالأبقار والأغنام والإبل ، واقتصر الفقهاء على هذه الأنواع الثلاثة ، لأن الثروة الحيوانية فى العصور القديمة كانت مركزة فى هذه الأصناف ، أما الآن ، فقد ظهرت استثمارات فى أنواع أخرى تدر من الربح ما يفوق أضعاف ما يكسبه المرء من الأصناف الثلاثة السابقة ، ولذا تجب الزكاة فى هذه الأنواع الجديدة التى ظهرت على ساحة الاستثمار كالدواجن والبط وغيرهما ، إذا بلغ ما يملكه المرء منها نصاباً يعادل قيمة نصاب أى نوع من الأنواع التى حددها الفقهاء فى العصور القديمة كأصناف تجب فيها الزكاة .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الخيل ليس فيها زكاة – بنص الأحاديث الواردة فى ذلك – ، لأنها كانت تستخدم فى الحرب ، فأعفى صاحبها من الزكاة فيها تشجيعاً للناس على تربيتها وتنميتها لتقوية الجيوش الإسلامية ، أما فى العصر الحديث فلم يعد لها دور يذكر فى المعارك الحربية ، ولذا تجب فيها الزكاة ، إذا بلغت قيمة ما يملكه المسلم منها ما يعادل قيمة النصاب فى أى نوع من الأنواع الثلاثة التى حددها الفقهاء ، وهى : الأبقار ، والإبل ، والأغنام .

المجوعة الرابعة :

أ – **الكفارة** ، فقد فرض الله إخراج جزء من المال للفقراء تكفيراً عن خطأ وقع فيه المسلم ، والكفارات متعددة ومتنوعة ، نظراً لتعدد الأخطاء وتنوعها ، مثل : كفارة اليمين ، وكفارة الظهار ، وكفارة الإفطار عمداً فى رمضان ، وغيرها من الكفارات التى تسهم إلى حد ما فى توزيع الثروة ، وسد حاجة الفقراء والمساكين فى المجتمع .

ب – **الصدقة** ، ورد الأمر بها والحث عليها فى آيات عدة من القرآن الكريم ، منها قوله تعالى "**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ...**"

[التوبة : ١٠٣] .. أى تطهرهم من الآثام والأدران ، وتزكيهم بالصدقة التى تنقى النفس من الشح والطمع وعبودية المال ، وتغرس فى المتصدق الميل إلى العطف على المحتاجين ، والبر بهم ، وتنمى فى نفوس الفقراء حب الأغنياء واستعدادهم للدفاع عن أموالهم ، لأن لهم فيه نصيب ، فيسود التعاطف والتآلف بين طبقات المجتمع . ولا تكون هذه الفوائد فى الصدقة إلا إذا أخرجها المتصدق ، وهو صحيح ، يغالب غواية الشيطان له بالحرص على المال ، وتحذيره له من الفقر والعوز ، فقد روى أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ فقال : " يا رسول الله ! أى الصدقة أعظم أجراً ؟ قال : **" أن تتصدق وأنت صحيح شحيح ، تخشى الفقر وتأمل الغنى ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم ، قلت : لفلان كذا ، ولفلان كذا ، وقد كان لفلان."** [(١)] ، بل إن الله تعالى سوى بين الأمر بالصدقة والأمر بالمعروف ، والإصلاح بين الناس ، مبيناً أن لا فائدة من الدعاء والتقرب إلى الله بالمناجاة إلا إذا كان ذلك مقروناً بالأمر بالصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس ، أى لا يكون هناك فائدة من الدعاء إلا إذا كان ذلك مقروناً بعمل شيء يكون فيه فائدة للمجتمع كالتواصى بإخراج صدقة ، أو الأمر بالمعروف ، أو السعى للإصلاح بين أفراد المجتمع ، يقول تعالى : " **لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** " [النساء : ١١٤] ، فقد سوى الله بين الأمر بالصدقة ، والأمر بالمعروف ، والإصلاح بين الناس ؛ لأن الثلاثة دعائم

---

(١) صحيح البخاري : جـ ٢ رقم ١٣٥٣

للمجتمع الصالح ، المتماسك البنيان ، المتآلف الطبقات ، الـــذى يـــشيع الحب والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بين أفراده ومؤسساته المختلفة، فلا غل ، ولا حقد ، ولا حسد ، لأن الكل يحصل على ما يحتاج إليه فى حياته ، ويشعر بأن له مما فى أيدى الأغنياء نصيب يحـــصل عليـــه ، دون امتهان أو احتقار ، فإن تقاعس من بيده المال ، ولم يؤد للفقير حقـــه ، كان هناك من يأمره بذلك ، لأن الأمر بالمعروف واجب دينى ، كما أن الإصلاح بين الطبقات مفروض أيضاً.

جـ - **والإنفاق فى سبيل الله** ، يقول الله تعالى : " **وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّـــهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَـــى التَّهْلُكَـــةِ وَأَحْـــسِنُوَاْ إِنَّ اللّـــهَ يُحِـــبُّ الْمُحْسِنِينَ** " [البقرة : ١٩٥] ، فعموم لفظ الآية يفيد أن المؤمن مأمور مـــن الله بأن يخرج جزءاً من ماله فى سبيل الله : فى تجهيز الجيوش التى تدافع عن المجتمع الإسلامى ، فى بناء المـــساجد ، فى رعايـــة الأيتـــام ، فى تأهيـــل الأحداث ، فى تشييد الطرق ، وغيرها من المجالات التى يجب دعمها بالمال — والجهد — لكى تؤدى وظيفتها فى المجتمـــع . وممـــا لاشـــك فيـــه أن المجتمعات التى ترعى شعوبها المؤسسات الخيرية ، وتدعم الهيئات التى ترعى مصالح الناس ، وتهيء لهم الخدمات اللازمة للحياة ، ويتساند أفرادهـــا فى تعمير الأرض ، والمحافظة على البيئة ، وتنميتـــها زراعيًّـــا ، وصـــناعيًّا ، وحراسة إنجازاتها فى جميع المجالات ، هى مجتمعات متماسكة البنيان ، لا يتطرق الضعف إليها فى أى جانب من جوانب حياتها ؛ لأن هنـــاك مـــن يقوم على حراستها ، ودعمها بالجهد والمال ، وهذا هو مفهـــوم هـــذه الآية : الإنفاق — مالاً وجهداً — فى سبيل الله ، ويشمل جميـــع مجـــالات الحياة حتى لا ينهار المجتمع ، فيهلك أفراده .

ولا يقتصر مفهوم الإنفاق على الزكاة والصدقة والإحسان ، بل ينـــدرج تحت مفهوم الإنفاق أيضاً : **استثمار المال وعدم كنزه** ، لأن كنز المال يضعف النشاط الاقتصادى ، بل يصيب الاستثمار بالشلل ، ولو كنز كل مالـــه لانهـــار المجتمع ، لأن المال يمثل عصب الحياة ، وذلك بحركتـــه فى تمويـــل المـــشروعات الصناعية والتجارية وغيرهما من فروع الاستثمار ، بل إنه يعتـــبر قلبـــه النـــابض بالحياة ، حيث يضخ الدم فى شرايين المجتمع بالإنتاج الذى يوفر فرص العمل كى يعيش الناس ، فالمال ، وإن كانت ملكيته خاصة ، إلا أن منفعته عامـــة ، فـــلا ينبغى لمالكه أن يشل حركته فى المجتمع ، بل يجب عليه دفعه فى دولاب الاقتصاد المتحرك فى التجارة والزراعة والصناعة وغيرها من الأنشطة الاقتصادية ، فإن لم يفعل ذلك بحبسه فى خزائنه ، فسوف يعاقبه الله عقاباً أليماً ، **حتى وإن أخرج زكاته** ، لأن حق المجتمع فى المال أن ينتفع به فى مجال الاستثمار،يقول الله تعالى :

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الـــذَّهَبَ وَالْفِـــضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَـــارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُـــسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ " [التوبة : ٣٤ - ٣٥].

الإسلام دين ودنيا ، عبادة وعمل ،وتنظيم للحياة للاستمتاع بمحاســـنها والوقاية من شرورها وآثامها ، وليس المفهوم من هذا التنظيم أن يـــشرح كـــل دقائقها ، ويبين تفصيلاتها وأجزائها ، وإلا كان خاصا بزمن معـــين ، ومجتمـــع بذاته ، لأن حياة المجتمعات تتفق فى المبادئ العامة ، وتختلـــف فى التفـــصيلات والفروع ، كلٌ حسب بيئته ، وطبقاً لمقتضيات عـــصره ؛ فالعـــصور مختلفـــة ،

والبيئات متفاوتة ، وطبيعة عناصر الحياة متطورة ومتجددة ، فلو حدد الإسلام الجزئيات وبين الفروع لكان ذلك منافياً لفلسفة الحياة ، ومناقضاً لمتطلباتها المختلفة ، وآفاقها المتنوعة ، ولصار ذلك حجرا على العقول من أن تمارس قدراتها في شرح المبادئ العامة التي صاغها الإسلام في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة ، ومن أمثلة ذلك ما جاء في آيتي التوبة ٣٤ ، ٣٥ ، ذلك أن المفسرين القدامى فسروهما على وجهين :

الأول : أن المقصود بالكنز هو عدم زكاة المال ، مستدلين على ذلك بالنصوص التالية :

- قوله ﷺ : **" ما أُدِّي زكاته فليس بكنز ، وإن كان باطناً ، وما بلغ أن يُزَكّى ولم يزكّى ، فهو كنز ، وإن كان ظاهراً "**
- قال عمر بن الخطاب ﷺ : **ما أُديت زكاته فليس بكنز .**
- وقال ابن عمر : كل **ما أُديت زكاته فليس بكنز ، وإن كان تحت سبع** أرضين ، وكل ما **لم تؤد زكاته فهو كنز ، وإن كان فوق الأرض .**
- وقال جابر : إذا أخرجت الصدقة من **مالك ، فقد أذهبت عنه شره ،** وليس بكنز .
- وقال ابن عباس في **قوله تعالى : " وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ ... "** [التوبة : ٣٤] يريد الذين **لا يخرجون زكاة أموالهم .**

خاطب الإسلام جميع الناس على اختلاف قدراتهم العقلية ، وتنوع أفكارهم الاجتماعية ، فكان صالحاً للخلق أجمعين على هذه الأرض ، مهما اختلفت ثقافاتهم ، وتنوعت نظم حياتهم ، وتباينت عاداتهم وتقاليدهم ، لأنه من العليم القدير ، العليم بقدرات خلقه الفكرية ، القدير على صياغة الوحي بأسلوب يفهمه كل إنسان على وجه البسيطة ، فجاءت آيات القرآن الكريم على

نحو صالح لكل الثقافات والبيئات ، فيفهمه ويفسرها ، ويستنتج منها أحكاماً تلائم عصره ، وتتوافق مع متطلبات بيئته ، وذلك هو قمة الإعجاز ، الذى انفرد به القرآن الكريم ؛ فقد فسر علماء العصر الإسلامى الأول آيتى التوبة ٣٤ ، ٣٥ على نحو يلائم عصرهم ، فذهبوا إلى أن المقصود **بالكنز** ، هو المال الذى لم تُؤدَّ زكاته ، - كما بينا فى الفقرة السابقة - أو المال الزائد عن حاجة مالكه لقول العلماء السابقين :إن الله تعالى خلق الأموال ليتوسل بها إلى دفع الحاجات ، فإذا حصل للإنسان قدر ما يدفع به حاجته ، ثم جمع الأموال الزائدة عليه ، فهو لا ينتفع بها لكونها زائدة على قدر حاجته ، ومنعها من الغير الذى يمكنه أن يدفع حاجته بها ، فكان هذا الإنسان بهذا المنع مانعاً من ظهور حكمته ، ومانعاً من وصول إحسانه إلى عبيده .

وبما لاشك فيه أن هذا القول مردود بعموم قوله تعالى :" **لها ما كسبت** " [البقرة : ٢٨٦] ، فإن ذلك يدل على أن ما اكتسبه الإنسان فهو حقه، وكذا قوله تعالى : " **وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ** " [محمد : ٣٦] ، وقوله ﷺ : " **كل امرئ أحق بكسبه** " ، بل إنه منع من أراد الوصية بماله كله من ذلك ، وأقره على الوصية بثلث ماله قائلا له : " **والثلث كثير!!!** " .

أما علماء العصر الحديث فلهم رأى آخر ، ألا وهو : أن الضمير فى " **ينفقونها** " ، عائد على جملة الذهب والفضة فى قوله تعالى : " **والذين يكنزون الذهب والفضة** " ، التى يملكها الإنسان ، إذ لا يجوز عود الضمير على بعض الذهب والفضة ، وهو الجزء المستحق للفقراء كـ " **زكاة** " ، ولم يرد فى الكتاب والسنة ما يوجب على المسلم أن ينفق كل ماله ، بل الذى ورد عكس ذلك ، فقد روى عن سعد بن مالك عن أبيه قال : " **عادنى النبى ﷺ عام حجة**

الوداع من مرض – أشفيت منه – أشرفت منه على الموت ، فقلت : يا رسول الله ! بلغ بى من الوجع ما ترى ، وأنا ذو مال ، ولا يرثنى إلا ابنة واحدة ، أفأتصدق بثلثى مالى ؟ قال : لا ! قال : فأتـــصدق بـــشطره ؟ قال : لا ! قال : الثلث يا سعد ، والثلث كثير ، إنك أن تذر ورثتـــك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس .... " [1]

كذلك لا يتناسب العقاب الذى ورد فى الآية : " **يوم يحمى عليه فى نـــار جهنم** ... الخ " مع الإثم الذى يرتكبه من لم يؤد زكاة ماله ، فلم يـــرد ذلـــك صريحاً فى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، ولا فيما استنتجه علماء الفقـــه الإسلامى منهما من أحكام ، وعليه فالعقاب الوارد فى الآية لابد أن يكون عقاباً على إثم يفوق إثم من لم يؤد زكاة ماله ، بل إنه لابد أن يكون إثماً عظيماً يتعدى أثره أسرة ، أومجموعة صغيرة من الناس يحتاجون إلى ما يسدون به رمقهـــم ، إثم يترتب عليه انهيار المجتمع ، وموت الحياة فيه كلية ، هذا هو الإثم الذى يـــستحق من يرتكبه هذا العقاب الأليم ، وهو مايفهم من الآية ، عندما فسر العلمـــاء فى العصر الحديث كلمة " ينفقونها " بـــ " **يستثمرونها** "، إذ حجب المـــال عـــن الاستثمار بكتره ، أي بوضعه فى الخزائن دون تركه يعمل فى الحركة الاقتصادية ، يشل حركة المجتمع ، ويوقف قلبه النابض ؛ إذ لو تصورنا – على سبيل المثال – أن كل من يملك مالاً وضعه فى خزائنه ، لمات الناس جوعاً ، بمن فيهم من يملـــك المال ، لأنه – وهم أيضاً – لن يجدوا ما يأكلونه ، إذ لا تكون هناك تجارة ، ولا زراعة ، ولا صناعة ، ولا أى عمل من أى نوع كان ، لأن حياة هذا كله هـــو المال . ولما كان هذا هو وضع المال وأثره فى حياة الأمة ، كان جزاء من يمنعه من

---

[1] صحيح البخارى : جـــ ٣ رقم ٣٧٢١

تأدية هذه الوظيفة : أن تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، لأن ذنبهم لم يقتصر على حرمان واحد أو اثنين مما يحتاجه فى حياته ، بل هو حرمان أمة بأسرها ، بل هو سبب فى موتها وهلاكها كلية .

وعليه فيجب على المسلم وجوباً عينيًا أن يستثمر المال فى التنمية ، أو يوكل غيره — كالبنوك مثلاً — إن كان لايقدر على ذلك ، فلا يمنع الأمة من الانتفاع بهذا المال ، وهذا هو معنى المبدأ العام فى الفقه الإسلامى " المال ملكيته خاصة ، ومنفعته عامة " ، أى أنه ملك خاص لصاحبه ، ولكن الأمة كلها تنتفع به ، فالعامل — أيًا كان عمله — ينتفع به ، لأنه هيّأ له عملاً يعيش منه ، والزارع ينتفع به ، لأنه أتاح له الأرض الذى يفلحها ، والتاجر يجد ما يسد به حاجته وما يلزم أسرته من التجارة فى المنتج : زراعة وصناعة وغيرها من مناحى الإنتاج فى المجتمع ، بل إن التقدم العلمى الذى تعود نتائجه بالرخاء وتيسير مناحى الحياة كلها ، يقوم على استثمار المال فى البحوث العلمية التى تعمل على اكتشاف ما فى ظواهر الكون من عناصر لتسهيل حركة الحياة .

ولكي ينتفع المسلمون بمالهم يجب استثماره فى الأقطار الإسلامية ، فلا يجوز وضعه فى بنوك أجنبية ، أو استثماره فى بلد غير إسلامى إلا إذا كان فى ذلك جانب من جوانب منفعته ، تعود على المسلمين ، لأن الاستثمار فى بلاد غير إسلامية هو حرمان المسلمين من حقهم فى الانتفاع بمواردهم الاقتصادية ؛ فبلاد المسلمين فى حاجة ملحة إلى كل درهم ، للتنمية الاقتصادية ، فنسبة البطالة فى العالم الإسلامى مرتفعة جدًا ، ومستوى المعيشة منخفض جدًا ، ووسيلة علاج ذلك هو المزيد من الاستثمارات ، فإذا استثمر أصحاب الأموال أموالهم فى بلاد غير إسلامية ، استفحلت مشكلة البطالة فى الأقطار الإسلامية ، وتدهورت مستويات المعيشة ، مما يؤدى إلى ضعف المسلمين وانهيار حياتهم ، فلا يستطيعون

رد غازٍ ، ولا يقوون على حماية بلادهم من الطامعين ، بل إنهم لـــن يكـــون فى وسعهم حماية عقيدتهم ، وعند ذلك يكون العقاب الذى تحدثت عنـــه الآيـــة : " **يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْــوَى بِهَـــا جِبَـــاهُهُمْ وَجُنـــوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ** .." [التوبة : ٣٥] موازياً لما ارتكبه أصحاب الأموال مـــن إثم فى حـــق شعوبهم الإسلامية . بل إن التقدم العلمى الذى تعود نتائجه بالرخـــاء وتيـــسير مناحى الحياة كلها ، يقوم على استثمار المال فى البحوث العلمية التى تعمل على اكتشاف ما فى مظاهر الكون من عناصر لتسهيل حركة الحياة .

فى الحج صفاء نفوس المسلمين ووحدتهم

راعى الإسلام فى إلزامه المسلم بالتعاليم الدينية قدرة الإنسان واستطاعته ، لأنها — أى التعاليم — من لدن الحكيم الخبير ، العليم بمن خلقه ، الرحيم اللطيف به ، فلم يفرض عليه ما تعجز قدرته على القيام به ، ولهذا نجد كثيراً من الآيـــات فى القرآن الكريم توضح هذا الجانب أبلغ توضيح ، يقول تعالى : "... **مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ** " [المائدة : ٦] ، أى ليس فى الـــدين مـــشقة ، وليس فى أداء الواجبات الدينية عسر ، فهى فى حدود طاقة الإنسان ، ولـــذلك سقطت عمن يعجز عن تأديتها ، يقول تعالى فى فريضة الـــصوم : " ... **وَعَلَـى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ**.." [البقرة : ٢٨٤]، أى الذين لا يطيقون الصيام، فيجوز لهم الإفطار مع التعويض بإطعام مسكين عن كل يوم يفطرونـــه ، كمـــا وضح القرآن الكريم عقب الحديث عن إلزام المؤمن بتأدية الفروض ، أن الفـــرض يلزم تأديته فى حال الاستطاعة فقط ، يقول الله تعالى : " **شَهْرُ رَمَضَانَ الَّـــذِيَ**

أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ " [البقرة : ١٨٥]، ويقول : " ... وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ... " [آل عمران : ٩٧] ، فأطلق الاستطاعة فى الآية ، لتشمل جميع النواح المادية ، والأمنية ، والنفسية ، والأسرية، فمن استطاع ماديًّا ، ولكن لا يأمن على نفسه ، أو يظن خطراً يلحق بأسرته بسبب غيابه عنهم ، لا يجب عليه الحج حتى يزول الخطر على نحو يكون الأمن مؤكداً له ، ولمن تحت ولايته ورعايته . وكذلك فى كل الأمور الشرعية ، يسقط الإلزام عند تعسر القيام بالفريضة ، أيًّا كان النوع الذى يحول بين المسلم وبين تأديته الفريضة ، فعلى سبيل المثال : تسقط صلاة الجمعة عن المسلم – ويؤديها ظهراً – إذا وجدت ظروف لا تمكنه من الذهاب إلى المسجد ، مثل :

- المرأة ، لاتجب عليها صلاة الجمعة ، لانشغالها بالأعمال المنزلية ورعاية الأطفال ، فلا يجب عليها الذهاب إلى المسجد لصلاة الجمعة ، وإن كان الذهاب إلى المسجد جائزاً لها ، ففرق بين الجواز والوجوب .
- القائمون على الحراسة ، لأن غيابهم عما يحرسونه فيه ضرر .
- الطبيب والممرض إذا كانت حالات المرضى تستدعى وجودهما فى كل لحظة بجوارهم .
- المدين إذا خشى مواجهة الدائن .
- من يخشى على نفسه أو ماله من أخطار الطريق المؤدية إلى المسجد ، ولا توجد طريق آخر آمناً .

وغير ذلك الكثير من الحالات التى تجعل تأدية الفريضة متعذراً ، أو مظنة إلحاق الضرر بالمسلم ، أو بمن تحت ولايته ورعايته .

كذلك شُرِعَت التعاليم الإسلامية لخدمة الإنسان ، سواء كان ذلك على مستوى الفرد ، أو على صعيد المجتمع ؛ فالعبادات — على سبيل المثال — هدفها الأساسى هو الارتقاء بالإنسان ، وذلك بتوجيهه إلى ما يصلح حاله ، ويغرس فى نفسه القيم التى تجعله إنساناً سويًّا بتصرفه مع نفسه ومع مجتمعه تصرفاً حسناً ، وبتعامله مع من حوله بأسلوب حضاري ، فالوضوء يطهره من الأدناس ، ويعوده على نظافة بدنه ، ومسكنه ، وشارعه ، وكل ما يتصل به ، ويحيط بعالمه ، فيقى نفسه شر الأمراض والعلل ، لأن النظافة هى أساس الوقاية . والصلاة تهذب نفسه ، وترقق مشاعره ، وتربطه بالله عز وجل آناء الليل وأطراف النهار ، فيستقيم سلوكه ، وتستقر نفسه ، ويستيقظ ضميره ، فلا يأتى من الأعمال ما يلحق الأذى بشخصه أو بمجتمعه ، ولا يفكر فى الاعتداء على الآخرين ، ويرضى بما قسم الله له ، فلا يسلب الآخرين حقهم ، بل يتساند معهم فى حفظ النفس والأعراض . والزكاة من أرقى النظم - إن لم تكن أرقاها — فى مجال التكافل الاجتماعى ، فلا يُتْرَك فقير يموت جوعاً ، ولا يُهْمَل مريض تفترسه آلام المرض وقسوة العلل ، كما أن الصدقة تؤدى إلى الهدوء الاجتماعى ، فلا يحسد فقير غنيًّا ، بل يتمنى له المزيد ، لأن له نصيباً فيه ، ولا يسطو على ماله فيدمره أو يغتصبه ، لأن فى الحفاظ عليه أمان له من العوز ، ودرع يقيه ألم الجوع والحرمان .

أما الحج ، فهو شعيرة إسلامية تجمع شتات المسلمين من جميع أقطار الأرض ، فتوحدهم فى صعيد واحد ، يتدارسون أمورهم ، فيناقشون مشاكلهم ، ويرسمون الخطط التى توجههم ، وتجمعهم تحت راية واحدة ، لكى يكونوا قادرين

على مواجهة الأزمات الداخلية بمد يد المساعدة لمن يحتاج منهم ، ولكى يتآزروا وتلاحموا فى مواجهة الأخطار الخارجية ، وقد عبر عن ذلك صاحب كتاب : " الإسلام قوة الغد العالمية " بقوله : " ... فى مكة تلتقى الشخصيات البارزة فى العالم الإسلامى ، فيحدث التعارف بين القادة من كل الأقطار الإسلامية ، فيتناولون فى أحاديثهم شئوناً سياسية ، ومسائل اقتصادية ، فتتضح لهم معالم الطريق ، وترسم أمامهم الخطط التى تأخذ طريقها إلى التنفيذ فى المقابلات السياسية التى تعقد فى مكان آخر غير مكة ، وهكذا تحمل لقاءات مكة — التى هى فى أصلها اجتماع دينى — ثماراً تمد العاملين فى مناطق الحكم والتوجيه بغذاء دينى يطبعهم بالطابع الإسلامى . لقد فقد مركز الإسلام الأول مركزه كنقطة تجمع سياسي ، ومكان لعقد المؤتمرات التى تعنى بشئون الحكم ، ولكنه — رغم هذا — لم يزل مكاناً تتفاعل فيه الأفكار ، فتنتج الوعى والإدراك بتبعيتهم جميعاً للإسلام ، فينصرفون إلى أوطانهم عاقدين العزم على مساندة بعضهم فى جميع شئون الحياة ...... انصهرت فى مكة خطط ومشروعات ، ونبعت من الشعائر الدينية التى تقام فى حرمها موجات سرت فى كل أرجاء العالم الإسلامى .... " [1]

وبالإضافة إلى هذا فقد فرض الله الحج على المسلمين لحكم كثيرة ، منها اجتماع المسلمين فى صعيد واحد ، يعبدون إلها واحداً ، مخلصين له الدين القيم ، الذى هو أساس الفلاح والنجاح فى الدنيا والآخرة . وإن من قواعد هذا الدين أن أتباعه إخوة ، يجب عليهم أن يتعاونوا على البر والتقوى ، فيعمل كل منهم لنصرة صاحبه ، وإن بعدت أبدانهم ، وتفرقت منازلهم . وعليهم أن يذكروا فى هذا الموقف أنهم بين يدى ربهم العلى القدير الذى خلقهم وفضلهم على كثير من

---

(1) باول شمتز : الإسلام قوة الغد العالمية ، ترجمة : محمد شامة صـ ١٦٠

خلقه ، وأنهم سيموتون ويقفون بين يديه فى يوم لا ينفع فيه سوى العمل الصالح ، والتمسك بما أمر الله به فى كل شأن من الشئون .

وقد فرضه الله مرة واحدة على كل فردمن ذكر أو أنثى ، وقد ثبت بالكتاب والسنة ، أما الكتاب فقوله تعالى : " **وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً** " وأما السنة فقوله ﷺ : " **بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، و إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا .** "

ومما يدل على أنه مفروض فى العمر مرة واحدة قوله ﷺ : " **... يا أيها الناس ! قد فرض عليكم الحج ، فحجوا ، فقال رجل : أكل عام يا رسول الله؟ فسكت ﷺ حتى قالها ثلاثاً ، فقال عليه الصلاة والسلام : لو قلت : نعم، لوجبت ، ولما استطعتم ....** "

وقد وردت فى فضله أحاديث كثيرة ، منها ماروى عن أبى هريرة قال : " **سئل رسول الله ﷺ : أى الأعمال أفضل ؟ قال : إيمان بالله ورسوله، قيل : ثم ماذا ؟ قال : ثم جهاد فى سبيل الله ، قيل : ثم ماذا ؟ قال : حج مبرور** " ، وهو الحج الذى لا يخالطه إثم . وذهب الأحناف والمالكية والحنابلة إلى أنه فرض على الفور ؛ فكل من توفرت فيه شروط وجوبه ، ثم أخره عن أول عام استطاع فيه يكون آثماً . وذهب الشافعى والثورى والأوزاعى ومحمد بن الحسن إلى أن الحج واجب على التراخى ، فيؤدى فى أى وقت من العمر ، ولا يأثم من وجب عليه بتأخيره متى أداه قبل الوفاة ، لأن رسول الله ﷺ أخر الحج إلى سنة عشر ، وكان معه أزواجه وكثير من أصحابه ، مع أن إيجابه كان سنة ست ، فلو كان واجباً على الفور لما أخره ﷺ .

اتفق الفقهاء على أنه يشترط لوجوب الحج : الإسلام ، والبلوغ ، والعقل ، والحرية ، والاستطاعة ، فمن لم تتحقق فيه هذه الشروط فلا يجب عليه الحج ، وذلك أن الإسلام والبلوغ والعقل شرط التكليف فى أى عبادة من العبادات ، لقول رسول الله ﷺ : " **رفع القلم عن ثلاث عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبى حتى يشب ، وعن المعتوه حتى يعقل** . " . والحرية شرط لوجوب الحج ، لأنه عبادة تقتضى وقتاً ، ويشترط فيها الاستطاعة ، بينما العبد مشغول بحقوق سيده ، فهو غير مستطيع .

وتتحقق الاستطاعة بتحقيق ما يلى :

- أن يكون المكلف صحيح البدن ، فإن عجز عن الحج لشيخوخته ، أو لمرض لا يرجى شفاؤه ، لزمه إحجاج غيره عنه ، إن كان له مال ، فإن لم يستطع فلا حج عليه .
- أن تكون الطريق آمنة ، بحيث يأمن الحاج على نفسه وماله ، فلو خاف على نفسه من قطاع الطريق ، أو من وباء يصيبه ، أو خاف على ماله من أن يُسْلَب منه ، فهو ممن لم يستطع إليه سبيلا . وقد اختلف العلماء فيما يؤخذ من الحاج فى الطريق من رسوم ومكوس ، هل يُعَدُّ عذراً مسقطاً للحج أم لا ؟ فذهب الشافعى إلى اعتباره عذراً مسقطاً للحج ، وإن قل المأخوذ ، وعند المالكية لا يعد عذراً ، إلا إذا أجحف بصاحبه ، أو تكرر أخذه .
- أن يكون المرء مالكاً للزاد والراحلة ، ويقصد بالزاد أن يملك المرء ما يكفيه مما يصح به بدنه ، ويكفى من يعوله كفاية فاضلة عن حوائجه الأصلية من : ملبس ، ومسكن ، ووسيلة مواصلة ، ومواد وآلات يحتاج إليها فى صناعته . والمقصود بالراحلة : هى الوسيلة التى تمكنه من

الذهاب والإياب ، سواء عن طريق البر أو البحر أو الجو . وهذا بالنسبة لمن لا يمكنه المشى لبعده عن مكة ، فأما القريب الذى يمكنه المشى ، فلا يعتبر وجود الراحلة فى حقه شرطاً فى الاستطاعة ، لأنها مسافة قريبة يمكنه قطعها سيراً على الأقدام .

هل يجب على المرء أن يبيع شيئاً مما يملك للنفقة على رحلة الحج ؟

لا يجب عليه بيع المتاع الذى يحتاجه ، ولا الدار التى يسكنها ، وإن كانت كبيرة تفضل عنه من أجل الحج . وبالإضافة إلى وجوب وجود الشروط التى ذكرناها يشترط أيضاً ألا يوجد ما يمنع الناس من الذهاب إلى الحج ، كالخوف من سلطان جائر يمنع الناس من سلوك الطريق المؤدية إلى الأماكن المقدسة .

ذكرت أن الحج لايجب إلا على البالغ العاقل الحر ، بمعنى أن الصبى والعبد لا يجب عليهما الحج ، فما الحكم لو حجّا ؟

إذا حجّا صح منهما ، لكن لا يجزئهما عن حجة الإسلام ، لما روى عن ابن عباس ﷺ قال : قال النبى ﷺ : " **أيما صبى حج ، ثم بلغ الحنث (أى مبلغ التكليف) ، فعليه أن يحج حجة أخرى ، وأيما عبد حج ، ثم أعتق فعليه أن يحج حجة أخرى** " . والمرأة والرجل سواء فى هذه الشروط التى توجب الحج ، لكن يزاد عليها بالنسبة للمرأة ، أن يصحبها زوج ، أو محرم . فإن اجتمعت الشروط السابقة ، و لم تجد زوجاً ، أو محرم يسافر معها لم يجب عليها الحج ، لما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " **لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم ، ولا تسافر المرأة إلا مع ذى محرم ، فقام رجل فقال : يارسول الله ! إن امرأتى خرجت حاجة ، وإنى اكتتبت فى غزوة كذا وكذا ، فقال : انطلق فحج مع امرأتك** " .

ما الحكم لو أغفلت المرأة هذا الشرط ، فـذهبت إلى الحـج دون أن يكون معها زوج أو محرم ؟

حجها صحيح ، و قد أجاز بعض الفقهاء سفر المرأة من غير محرم ولا زوج ، إذا وجدت رفقة مأمونة ، أو كان الطريق آمناً ، واستدلوا على ذلك بما رواه البخارى عن عدى بن حاتم قال : "**بينما أنا عند رسول الله ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه فاقة ، ثم أتاه رجل آخر فشكا إليه قطع السبيل ، فقال : يا عدى ! هل رأيت الحيرة ؟** (وهى قرية قريبة من الكوفة) **قلت : لم أرها ، وقد أُنْبِئْتُ عنها ، قال : فإن طالت بك حياة لترين الظعينة** (وهى كلمة تطلق على المرأة وهى فى الهودج) **ترتحل من الحيرة حتى تطوف الكعبة لا تخاف إلا الله** " .

وخلاصة القول : أن من لم يجب عليه الحج لعدم الاستطاعة (مثل : المريض ، والفقير ، والمقطوع طريقه ، والمرأة بغير محرم وغيرهم) إذا تغلب على عدم الاستطاعة وحج ، يصح حجه ، وقد جاء فى المغنى : لو تجشم غير المستطيع ، وسار بغير زاد ولا راحلة فحج ، كان حجه صحيحاً مجزئاً .

الإنتاج العلمى لـ أ. د / محمد شامة

أولاً: الكتب :

١- بين الإسلام والمسيحية (تحقيق وتقديم وتعليق لكتاب أبى عبيدة الخزرجى المتوفى ٥٤٨هـ)

٢- بحوث فى علم الأديان المقارن.

٣- الإسلام قوة الغد العالمية (مترجم من اللغة الألمانية).

٤- الإسلام فى الفكر الأوروبى (عرض وتحليل لكتاب صدر باللغة الألمانية تحت عنوان : الإسلام قوة عالمية متحركة).

٥- الخطر الشيوعى فى بلاد الإسلام.

٦- أثر البيئة فى ظهور القديانية.

٧- الإسلام دين ودولة.

٨- فى رحاب القرآن.

٩- الإسلام طهارة ونقاء.

١٠- الحسد فى القرآن الكريم بين الحقيقة والأسطورة.

١١- محاضرات فى علم الخطابة النظرية والعلمية (بالإشتراك مع آخرين)

١٢- عقائد وتيارات فكرية معاصرة (بالإشتراك مع آخرين)

١٣- التخلف فى العالم الإسلامى بين الداء والدواء

١٤- الشباب مرآة المجتمع

١٥- الإسلام إصلاح وتهذيب – رؤية معاصرة للحدود والتعزير.

١٦- العقيدة – مفهومها وتطورها.

١٧- لا ... لتطوير الخطاب الديني .

١٨- الإسلام كما ينبغي أن نعرفه .

١٩ – في علم الأديان

٢٠- حوار الأديان / ودور الدعوة الإسلامية في مواجهة التحديات .

21- Razi als Quranausleger und Philosoph.

22- Die Stellung der Frau im sunnitischen Islam.

23-Rituelle Handlungen im Islam.

24- Zu Fragen der Frauen im Islam.

25- Philosophie der Ehe im Islam.

26- Der Islam wie wir ihn verstehen sollen.

27- Ad-DaÝ Wah (Einladender Aufruf zum Islam)

ثانياً: أكثر من خمسة وخمسين بحثاً قدمتْ لمؤتمرات وندوات دوليـــة وإقليميـــة ، ونشرت في مجلات ودوريات علمية متخصصة.

السيرة الذاتية لـ : أ.د. محمد عبدالغنى شامة

- ولد ونشأ فى قرية "أبوالغيط" ، مركز القناطر الخيرية فى ١٩٣٢/٥/٩م حيث حفظ القرآن الكريم فى مكاتب تحفيظ القرآن بها ، وأتم المرحلة الإلزامية فى مدارسها .
- فى عام ١٩٤٧م التحق بمعهد القاهرة الدينى ، حيث أتم المرحلتين : الابتدائية والثانوية ، وحصل منه على الثانوية الأزهرية فى عام ١٩٥٦م.
- ثم التحق بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر ، وحصل منها على الشهادة العالية من قسم الفلسفة عام ١٩٦٠م ، وعلى العالمية مع إجازة التدريس عام ١٩٦١م.
- رشح فى بعثة الأزهر إلى ألمانيا الغربية للحصول على الدكتوراة فى عام ١٩٦٢م، حيث درس فى كلية الآداب بجامعة برلين الغربية (F.U.B) ونال شهادة الدكتوراة فى مقارنة الأديان عام ١٩٦٨م .
- عمل واعظاً أثناء الدراسة الجامعية بالشهادة الثانوية الأزهرية ، وبعد تخرجه من الكلية عين مباشرة فى معهد منوف الأزهري حتى سفره فى البعثة ، وبعد البعثة عمل مدرساً فى معهد البعوث الإسلامية ، وفى معهد القاهرة الدينى .
- عمل باحثاً فنياً فى مجمع البحوث الإسلامية فى عامى ١٩٦٩ ، ١٩٧٠م.
- فى عام ١٩٧٠م عين مدرساً فى قسم العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين بالقاهرة ، جامعة الأزهر ، ثم انتقل إلى قسم الدعوة والثقافة الإسلامية بها ، حيث رقى فيه إلى أستاذ مساعد فى عام ١٩٧٥م ، وإلى درجة أستاذ فى عام ١٩٨٠م ، وتولى رئاسة القسم من هذا التاريخ إلى أن عين وكيلا لكلية الدعوة الإسلامية بجامعة الأزهر فى عام ١٩٨٤م.
- أعير لجامعة أحمد بللو بنيجريا لمدة سنتين دراسيتين (٧٤/٧٥،٧٥/ ١٩٧٦م) وتولى رئاسة قسم الدراسات الإسلامية بها ، ثم لجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض لمدة سنتين دراسيتين (٧٦/٧٧ ، ٧٧/١٩٧٨م) وتولى رئاسة قسم الدعوة بالمعهد العالى للدعوة الإسلامية .
- فى عام ١٩٨٤م أعير لجامعة قطر وظل يعمل بها أستاذاً ورئيساً لقسم الدعوة والثقافة الإسلامية حتى يونيو ١٩٩٣م .
- يعمل حالياً أستاذاً غير متفرغ للدراسات الإسلامية باللغة الألمانية بكلية اللغات والترجمة بجامعة الأزهر .
- عمل أستاذاً زائراً فى العديد من الجامعات العربية والأجنبية إفريقياً وآسيوياً وأوربياً كان آخرها فى عام ٢٠٠٣م فى جامعة نور- مبارك بجمهورية كازاخستان .

- أشرف وناقش العديد من رسائل الماجستير والدكتوراة بلغ عددها أكثر من تسعين رسالة فى العديد من الجامعات العربية والأجنبية ، كان آخرها فى شهر نوفمبر عام ٢٠٠٥م فى جامعة هالة بألمانيا.
- اشترك فى أكثر من أربعين تجمعاً علمياً مابين مؤتمر وندوة ولقاءات للحوار الديني كان آخرها لقاء حوار الأديان الذى عقد فى ألمانيا الغربية ، ومؤتمر الشباب الذى عقد فى رابطة الجامعات الإسلامية بالقاهرة فى عام ٢٠٠٤م ، ومؤتمر زعماء الأديان الذى عقد فى أستانا عاصمة كازاخستان فى عام ٢٠٠٦م

محتويات الكتاب

حوار الأديان والحضارات

٩ — ٦٣

دور الدعوة الإسلامية فى مواجهة التحديات الداخلية والخارجية

٦٥ - ٩٩

فلسفة الإلزام فى الإسلام

١٠١ - ١٣٩

رقم الإيداع : ٢١٦٣٧ / ٢٠٠٧
الترقيم الدولي : 977 - 17 - 5124 - ٦